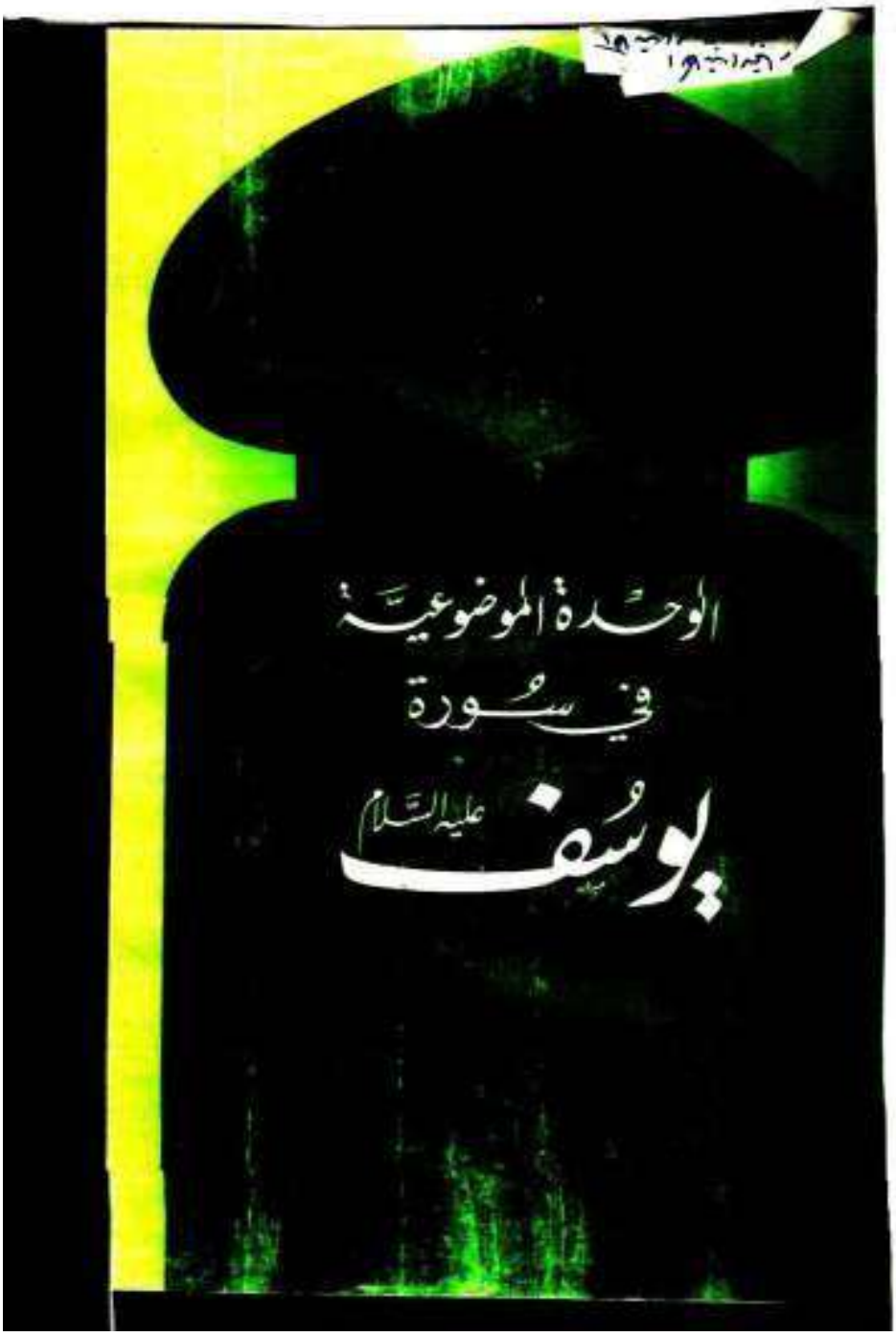
الوحدة الموضوعية
في سورة
يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٥٥٥٥ - هاتف: ٦٤٤٥٤٤٤

جميع الحقوق لهذه الطّبعة محفوظة للناشر

الوحدة الموضوعية
في سورة
يوسف عليه السلام

الإهداء ..

إلى زوجتي ...

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله تعالى حمداً كثيراً وأصلّي وأسلّم على خاتم أنبيائه وبعد :

فهذه هي الطّبعة الثّانية من هذه الدّراسة المتأمّلة لسورة يوسف عليه السّلام، وعنوانها: « الوحدة الموضوعيّة في سورة يوسف عليه السّلام » . أقدّمها لكلّ متدبّرٍ لكتاب الله تعالى بعد نفاد الطّبعة الأولى من عدّة سنوات ، وحيلولة المشاغل دون العمل من أجل إعادة طبعه ، فقد أعان الله تعالى وفي زهاء ألفي صفحة على إتمام دراسة عشر سورٍ دراسةً متأمّلة في سلسلة هذه الدّراسات وحّدها وهي على النّحو التّالي: مريم . يس . الإسراء . الصّلاة الفرقان . العاديات . النّازعات . الحاقة . الرّعد . محمد عليه السّلام . الفاتحة . وإنْ شاء الله تعالى سنرى دراسة سورة الأحزاب النور في وقتٍ ليس بالبعيد .

وأودّ في هذه المقدّمة أن أسجّل بعض فضل الله تعالى عليّ من جهة هذه الدّراسات . فهذه الدّراسة مثلاً أثارت الكثير من النّقاش والحوار مع فريقٍ من العلماء في العديد من التخصصات ، لأنّ شخصيّات قصّة السّورة الكريمة أوجدت المجالات المتعدّدة للمناقشة والحوار من قِبل فريقٍ من المتخصّصين بما في ذلك المهندس والطبيب وعالم النّفس . فهذا مهندس يجد في تفوّق يوسف عليه السّلام ، بإلهامٍ من الله تعالى ، في مجال الزّراعة ، وخاصّةً فيما يُسَمّى بالرّيّ والصّرف مجالاً كي يبيّن الطّريقة الرّيّ التي وفّق الله تعالى يوسف عليه السّلام لاكتشافها والتي تنسب إليه . وهذه الطّريقة تتعلّق بريّ الأراضي المرتفعة عن مستوى ماء النّيل .

وقد ألهم الله تعالى يوسف عليه السّلام بأن يكتشف نظام النّواعير .

إذ تظلّ الواحدة تلو الأخرى ترفع الماء إلى أعلى ، حتّى إذا وصل الماء إلى المنطقة العليا أمكن توجيهه لريّ كلّ الأراضي المنخفضة عن تلك المنطقة العليا . وهذا طبيب يجد في شخصيّة العزيز على جهة الخصوص مجالاً لعقد مقارنة بين العزيز الذي كان له موقفٌ سلبيّ تجاه ثبوت تهمة زوجه في مراودتها ليوسف عليه السّلام ، الطّاهر الذّيل العفيف ، وبين العديد من الحالات المشابهة التي مرّت به كطبيب ، لشخصيّات كانت تصرفاتها لعجزها الجنسيّ من جنس سكوت العزيز عن المنكر مقابل سكوت الزّوجة عن العجز الجنسيّ . وهذا عالمٌ من علماء النفس يجد في الدراسة مجالاً لعقد ندوة عنها ، وقد كان ذلك من قِبَل رئيس قسم الدّراسات الدّوليّة والحضاريّة بكليّة جلبرن بأستراليا للدّراسات العليا التربوية ، ولم يقدّ لي أن أشهد النّدوة ولم أسمع بعد ما دار فيها حيث إني لم أحصل بعد على شريط تسجيلها ، ولكنّي أعلم أنّ رئيس القسم هذا قرّر ترجمة الكتاب إلى الانجليزيّة ، وحسب علمي وصلت التّرجمة إلى ما يزيد على ثلث الكتاب (١)

وإذا نحن تجاوزنا الحديث عن جائزة البحث العلميّ التي منحتها جامعة الملك عبد العزيز للمؤلّف بتاريخ ١٣٩٤/٤/٨ هـ الموافق ١٩٧٤/٤/٣٠م وتجاوزنا النّقد الصّادق للدّراسة والذي ركّز – إلى جانب الإيجابيّات – على ما في الدّراسة من تكرارٍ غير مُخِلّ ، حسب تعبير بعض الأساتذة ، إذا نحن تجاوزنا ذلك إلى رسالة واحدة بالذّات تلقّاها المؤلّف عن هـذا الكتاب من عالمٍ ووزيرٍ للأوقاف بأحد الأقطار الإسلامية ونائب لرئيس الوزراء للشؤون الدّينيّة بها ، أمكن أن يقتطف منها ما يلي :

« وسعدت بما فيه من وفرةٍ في الاطّلاع والتنقيب وعمق الفكر . وقد كان تحليلكم لشخصيّة سيّدنا يوسف عليه السّلام ، وهي المحرّكة لكلّ أحداث القصّة ، والمراحل التي مرّ بها خلال حياته المجيدة ، تحليلاً موفّقاً مثاباً عليه إن شاء الله » .

وهذه الدّراسة ، ككلّ دراسة ، بمرور الوقت يتبيّن بشأنها بعض الملاحظات والإضافات . ويمكن لكلّ تلك الملاحظات والإضافات أن تكون هامشيّة . ويصحّ إلحاقها ، وقتاً من الأوقات ، بالدّراسة أو جمعها في مقال . وثمّة نقطةٌ واحدةٌ بعينها هي التي نحتاج إلى تدوينها هنا ، رغم أنّنا بادرنا بتسجيلها في أوّل مناسبة وكان ذلك في تأملاتنا لسورة الحاقّة وأثناء تأمّلنا للآية الكريمة التّاسعة . قال تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » . وهذه النّقطة هي المتعلّقة باستعمالات القرآن الكريم لجملتي « جاء » و « أتى » ولكل منهما دورُها الفعّال في سورة يوسف . ومع أنّنا سجّلنا هذه النّتيجة في غير ما موضع من دراستنا المتأملة ، فإنّا نودّ أن نسجّل هنا كذلك هذه النّتيجة لعَلاقتها الوثيقة بسورة يوسف عليه السّلام ولقدرتها على إعطاء التصوُّر الدقيق لسير أحداث القصّة . أمّا هذه النّتيجة فتتلخّص في كون جملة « جاء » ومتعلّقاتها لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القُرْب الزّماني ، أو المكاني ، أو النفسيّ . وكون جملة « أتى » ومتعلّقاتها لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البُعْد الزّماني ، أو المكاني ، أو النّفسيّ . ونبادر بذكر مثلٍ واحدٍ نكتفي به ، يتبين منه عَلاقة جاء بالزّمن القريب وأتى بالزّمن البعيد . جاء في سورة الأعراف(١) على لسان قوم موسى وعلى لسانه عليه السّلام قوله تعالى : ﴿ قالوا أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربُّكم أن يُهْلِك عَدُوَّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾.

وبما أنّ الطّبعة الأولى ، بسبب أزمة الورق أثناء الطّبع ، قد حذفت المعجم المفهرس لألفاظ السّورة الكريمة ، ونظراً لأهمية هذا المعجم المستقلّ للسّورة الكريمة ، وأملنا أن يكون نواةً لمعجم مفهرس لكلّ سورةٍ

---

١ ـ الآية ١٢٩ .

من سور القرآن الكريم على جِدَة ، فقد أعدنا بفضل الله تعالى هذا المعجم في هذه الطّبعة الثّانية إلى موضعه الأصلي . وبالله التوفيق .

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن يتقبل منّا صالح أعمالنا إنّه سميع مجيب . وصلّى الله على سيّدنا محمّد النبيّ الأمّيّ وعلى آله وصحبه أجمعين وسلّم تسليماً كثيراً . والحمد لله رب العالمين .

مكّة المكرّمة
يوم الاثنين ١٤٠١/١/١٦ هـ
الموافق ٢٤ نوفمبر ١٩٨٠ م

د. حسن محمّد باجوده
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى
بمكّة المكرّمة

مُقدّمة

هذا العمل « الوحدة الموضوعيّة في سورة يوسف عليه السّلام » يتكون من أربعة فصول :

في الفصل الأوّل حاولنا توضيح وحدة الأحداث الموضوعيّة في سورة يوسف بشقّيها القصصي والتعقيبيّ ، في ضوء فهم الوحدة الموضوعية ، بأن يكون العمل متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك بحيث إنّ كلّ جزئية تفضي إلى التي تليها ، ولا يمكن حذف جزئية واحدة ، لأن العمل يستغنى عنها ، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها . كما بيّنا حقيقة كون القرآن الكريم جمع أحسن ما يكون الجمع بين النّاحيتين الفنيّة والدينيّة ، وأنّ الناحية الفنيّة وسيلة دائماً للناحية الدينيّة ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى وأن الغرض الذي تهدف إليه السورة بقسميها القصصيّ والتعقيبي ، هو تثبيت فؤاد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإن اختلفت طريقة كل من القسمين في الوصول للغرض ، الأوّل وفي بالغرض بطريق غير مباشر إذ التمّ شمل آل يعقوب أخيراً ، والثاني وفي بطريق مباشر يعتبر تطوراً طبيعياً للطريق الأوّل .

وإذا كان القسم الأوّل حقّق غرضه في نغم موسيقيّ قصصيّ مؤثر في الوجدان محرّك للعقل ، فإن الطريق الثاني ، الذي يعتبر تطوُّراً طبيعياً للأول والذي كان نصيب العقل فيه موفوراً ، حقّق غرضه في نغم موسيقي آخر متمشياً مع هذا التطوُّر ، ترتاح له النفس المدركة لضرورة هذا التنويع وقيمته .

وفي الفصل الثاني الخاصّ بالشخصيات درسنا الشخصيّات التي لها دور فعال في دفع أحداث القصّة إلى الأمام ، وقد مررنا سريعاً بالشخصيّات

التي لها أدوار خاطفة ، تلا ذلك دراسة شخصيّات الفئة الثانية في القصّة . وقد أمكن دراسة بعض الشخصيّات منفردة ، ولكن بما أنّ هناك مجموعات من الشخصيات تفاعلت بالدرجة الأولى حول قضية معينة ، لذلك درسنا كل مجموعة كتلة واحدة .

تلا ذلك دراسة الشخصيات الرئيسيّة في قصة يوسف عليه السّلام ، التي أشارت إليها الآية التي جاءت على لسان يوسف عليه السلام قاصّاً رؤياه على والده نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السلام . قال تعالى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ وقد فسّرَ الأحد عشر كوكباً بأنهم إخوته ، والشمس بأنها والده ، والقمر بأنه والدته .

وبما أن التفاعل خلال القصة كان الغاية في القوّة بين الإخوة من ناحية ، ويعقوب من ناحية أخرى ، والإخوة فيما بين أنفسهم أيضاً ، لذلك جمعنا في دراسة الشخصيات بين يعقوب وإخوة يوسف .

وبما أن يوسف عليه السلام ، منذ أخذ إخوته له معهم كي يرتع ويلعب ، بل منذ فجر القصة ، هو المحرّك الأوّل لما يجري في آل يعقوب ولكل أحداث القصة ، لذلك أفردنا في الفصل الثالث هذه الشخصية المباركة بالدراسة .

وقد بيّنّا كيف تطوّرت شخصيات الإخوة حيث الصّلاح والخير ، وكيف نمت بذْرَة الصلاح التي جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى على لسانهم: ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ . وحينما رجع الإخوة إلى مصر في الرّحلة الثالثة بنفوس وقلوب غير السابقة . لم يتردّد يوسف عليه السلام ، الذي كان عزيز مصر آنذاك ، في الكشف عن حقيقة نفسه .

كما بيّنا كيف ضرب يعقوب عليه السلام المثل الأعلى في الإيمان المطلق بالله تعالى ، حيث إن اليأس من رَوْح الله تعالى لم يجد له وقتاً من الأوقات إلى نفسه عليه السلام سبيلا . وكان عليه السلام خير محرّك للأحداث بحسن تلقيه لها لصبره صبراً جميلا واحتسابه . وقد أثابه الله تعالى بلمّ شمل آل يعقوب ، وفيهم يوسف ، ابنه الحبيب .

أما شخصية يوسف عليه السلام فإنها المحركة لكل أحداث القصة في سورة يوسف بلا استثناء ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، في حضوره أو غيابه على السّواء . وقد بيّنا المراحل الثلاث التي مرّ بها عليه السلام خلال حياته المجيدة .

الأولى : مرحلة الغلام المحبوب من والده ذي النفس الصافية المشرقة ، وتنتهي بوضع إخوته العشرة لأبيه له في غيابة الجبّ .

الثانية : مرحلة اختبار الله تعالى له بالابتلاء . منذ وضع إخوته له في غيابة الجبّ حتى ثبوت براءته وخروجه من السّجن . وهذه المرحلة تنقسم إلى قسمين :

الأوّل في بيت عزيز مصر ، والثاني في السجن الذي زجّ به فيه جزاء عِفّتِـه .

الثالثة : مرحلة اختبار الله تعالى له بالنّعْماء ، بتعيين ملك مصر له في منصب عزيز مصر الذي كان آنذاك شاغراً حتى اجتماع شمل آل يعقوب في مصر وتعبير رؤياه .

أمّا الفصل الرابع فذو شقّين : الأول يتحدث عن المجتمعات في سورة يوسف ، المجتمع المكّيّ ونظائره ، والمجتمع الشاميّ ، والمجتمع المصريّ . والثاني يتحدث عن الدروس المستفادة من سورة يوسف عليه السلام .

وقد وضعنا بين يدي البحث سورة يوسف ، لأن دائرة البحث

لا تكاد تتعدّى هذه السورة كما ذيّلنا البحث بمعجم مفهرس لألفاظ هذه السورة ، منقول بكامله من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي . ولم يُضَفْ إليه سوى هذه المادّة « ذلك » للدور البارز لهذه المادة في سورة يوسف . وقد قمت بشأن المعجم المفهرس لألفاظ سورة يوسف بالتّجْرِبَة التي قام بها الأستاذ عبد الباقي في كتابه ، كما أشار إلى ذلك في قوله:« ولما كنت أخشى أن تسقط منّي لفظة في أثناء النسخ ، فقد لجأت إلى طريقة عددتها أنجح الطرق وأضمنها للحصر والإصابة ، ذلك أنّي كنت – بعد تصحيح التجربة الأخيرة – أضع خطاً في مصحف أعددته لذلك على كلّ لفظة ورد ذكرها فيها . حتّى إذا انتهى الكتاب ، رجعت إلى المصحف وعرضته لفظةً لفظة » .

والأمر الذي أشهِدُ الله عليه هو أني لم أشأ لحظة من اللحظات أن أحمّل حرفاً واحداً في كتاب الله تعالى شيئاً فوق ما يحتمل .

ومن كانت له على هذا العمل أية ملاحظة ، فلا يتردّد في إبدائها ، فالحق أحقّ أن يتّبع .

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ويتقبل منا صالح الأعمال ويسدّد خطانا وينير لنا السّبيل ، إنه على كلّ شيء قدير . ﴿سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون ، وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾ . وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .

مكة المكرمة السبت غرة جمادي الأولى سنة ١٣٩٣هـ ٢ يونيو ١٩٧٣م

د. حسن محمد باجوده
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
بجامعة الملك عبد العزيز
بمكة المكرمة

سُورَةُ يُوسُفَ

سورة يوسف مكية وآياتها ١١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب المبين ① إنا أنزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون ②
نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرءان
وإن كنت من قبله لمن الغافلين ③ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت
إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي
ساجدين ④ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا
لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ⑤ وكذلك يجتبيك
ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى
ءال يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبرهيم وإسحق إن
ربك عليم حكيم ⑥ لقد كان في يوسف وإخوته ءايات
للسائلين ⑦ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا
ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلل مبين ⑧ اقتلوا يوسف
أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده
قوما صلحين ⑨ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في
غيبت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فعلين ⑩

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ
مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ
تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾
قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾
فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ
عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا
يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا
صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ
سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ
وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ
مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ
مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ
هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ
لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾
وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا
ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ
قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ
قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن
دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ
نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا
حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا
وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾
قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ

فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ
ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا
تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾
فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾
ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ
مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ
إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا
نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ
إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾
مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا

وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي
فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ
رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾
وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي
رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا
نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ
بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا
الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ
فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ
سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ
يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ
فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ
عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ

قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ
حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾
ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾
• وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾
قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا
تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى
بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ
عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ
فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا

مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ
لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ
أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا
نَبْغِي ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ
مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ
بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ
وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ
أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي
نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ
قَالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم

مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾
قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا
مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي
دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ
فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ
مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا
شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا
لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن
قَبْلُ مَا فَرَّطتُمُونِي فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ
يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ
فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا
كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي

أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩٥﴾
وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ
ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ
تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٨﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟
فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا
يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٩٩﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟
عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا
بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿١٠١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا
يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿١٠٣﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ
ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٤﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا
فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٥﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا
أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ
أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ
رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ
أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ
أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ
رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي
مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ
بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ • رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ
فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ
آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾
أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ
أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

الفصل الأول

وحدة الأحداث الموضوعية في سورة يوسف

وحدة الأحداث الموضوعية في سورة يوسف

حينما درّس النقّاد المسرحية والقصّة ، وهما من الفنون الأدبية المستحدثة في اللغة العربية ، تبيّن لهم أن الوحدة الموضوعية من أهمّ الشّروط التي يجب توافرها في العمل الأدبيّ . ونحن حينما نتكلم عن الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، لا نريد البتّة أن نقارن بين القرآن من جهة والفنون الأدبية من جهة أخرى . إنّما نُريد أن نوضّح تلك الوحدة الموضوعية ، ونبيّنَ التماسك العضويّ ونؤكّد الترابط الفني الدقيق .

فما المراد بالوحدة الموضوعية ؟

المرادُ بالوحدة الموضوعيّة أن يكون العملُ الفنيُّ متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك بحيث إنّ كل جزئيّة تفضي إلى التي تليها ، ولا يمكن حذْفُ جزئيةٍ واحدة لأنّ العمل الفنيّ يستغني عنها أو إضافةُ جزئيّة أخرى يفتقر إليها . وينبغي أن نقرّر ابتداءً أنّ القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين:الفنية والدينية ، وأن الناحية الفنية وسيلة دائماً للناحية الدينية ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى .

ومعروف أن سورة يوسف تتكون من قسمين : القسم القصصي والقسم التعقيبي .

وستتناول القسم القصصي ابتداءً

" القسم القصصي "

لقد بدأت القصة بالإشارة إلى الرّؤيا التي رآها يوسف عليه السلام . قال تعالى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت ، إنّي رأيتُ أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتُهم لي ساجدين . قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على

إخوتك فيكيدوا لك كيداً إنّ الشّيطان للإنسان عدوٌّ مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إنّ ربك عليم حكيم ﴾ .

إنّ للرؤيا في هذه السورة دوراً كبيراً في دفع أحداث القصّة إلى الأمام ، فقد فُسّر الشّمس والقمر بوالدي يوسف ، والنجوم بإخوته . ويخاطب يعقوبُ ابنه بأنّ الله عزّ وجلّ يصطفيه ويعلّمه من تأويل الأحاديث . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رؤيا المؤمن جزءٌ من أربعين ، وفي رواية جزء من ستّةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة »(١) وهي أوّل ما بُدئ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثلَ فَلَقِ الصُّبح(٢) .

وإن الشخصيات التي تدور حولها القصة قد ذُكِرَتْ منذ البداية ، وهناك إشارة إلى الصراع المنتظر حينما نصح يعقوب ابنه ألا يقصّ رؤياه على إخوته . لقد كان جلُّ الإخوة متّفقين على حسدهم ليوسف وتخلّصهم منه . ولكنهم كانوا مختلفين في طريقة التخلّص .

فمنهم من آثر قتله . ومنهم من آثر أن يُطرَحُ أرضاً بعيدةً احتمال نجاته منها قليل . ولكنّ أخاً منهم رأى إلقاءه في غيابة الجب ، وبذلك تتحقق الرغبة في التخلص منه ، ولكن احتمال نجاته هنا أكثر . وهذا الرأي هو الذي ارتضاه الجميع أخيراً . قال تعالى: ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلالٍ مبين ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾.

---

١ ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف ١٩١/١
٢ ـ صحيح البخاري ٥/١

وتبدأ المحاولة من إخوة يوسف لأخذه وإلقائه في غيابة الجب ، ولكن جواب يعقوب كان معمقاً فيهم غريزة الحسد ليوسف ؛ إذ تضمّن سبب الحسد وهو حب يعقوب له وخوفه عليه ﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ، قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون﴾ وهكذا نجد أن الإشارة إلى الذئب الذي نسب إليه الفتك بيوسف قد جاءت مرّتين فعندما يدّعي الإخوة مستقبلاً أن الذئب أكل يوسف ، فلن تكون هذه الدعوى غريبة على أنفسنا ولا مفاجئة لما استقرّ في الأنفس من ملازمة الغدْر بالذئب ، خاصّة مع الضّعاف . إنّ النفس مهيّأة لتلقّي مثل هذا الاتّهام . والشيء نفسه يقال عن السّيّارة الذين أخذوا يوسف من الجبّ وباعوه . فقد مرت لفظة السيّارة والإشارة إلى عملية الالتقاط من قبل ﴿يلتقطْهُ بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين﴾. وبَيْعُ يوسف أيضاً في ذلك العصر الذي يُتعامل فيه مع المماليك ، ليس مفاجئاً لنا ؛ فإنّ خوفهم أن يُسألوا عن مصدر ذلك الغُلام طبيعيّ ، لهذا آثروا التخلُّصَ منه وبَيعَهُ بثمن بخس . ﴿وشَرَوه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ وكانوا فيه من الزّاهدين﴾.

يوسف في بيت العـزيز :

ويصل يوسف إلى مصر ، ويكرمه عزيزها الذي اشتراه من السّيّارة ، ويوصي زوجه أنْ تكرِم الغلامَ وتنزلهُ منها منزلة الولد ، تماماً كما نزّله هو . وهذا شيء طبيعي من زوجين ثريّين ليس لهما ذرّيّة ، صادفا غلاماً وسيماً توسّما فيه خيراً . وبلغ يوسف في ذلك البيت أشُدَّه . قال تعالى: ﴿ولما بلغ أشدّه آتيناه حُكْماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين﴾ .

لقد آتاه الله تعالى حكمةً تُنْقِذُه من الورطة التي سيجد نفسه فيها ، وعِلماً يتيح له الوصول إلى أعلى الرّتب . وتتلخص الورطة في مراودة

امرأة العزيز له عن نفسه وإنقاذ الله تعالى له . فلنتأمّل هذه الآيات ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يُفلحُ الظالمون ، ولقد همّتْ به وهمّ بها لولا أن رأى بُرهان ربه كذلك لنصرف عنه السُّوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ، واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجنَ أو عذاب أليم ، قال هي راودتني عن نفسي﴾ لننظر إلى ذلك الصّراع النفسي الرّهيب والموقف المهيب . مراودة وإصرارٌ من جانب ، واستعصام وإصرارٌ عليه من جانب آخر . ولنتمثّل تلك الحركة التي قام بها يوسف الذي يريد الفرار بدينه ، والتي قامت بها امرأة العزيز مستمسكة به حتّى قدّت قميصه من دُبُر . ووجود الزوج على الباب واتّهام الزوجة ليوسف وجوابه الحاسم : ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ . لو أن في نية يوسف عليه السلام ذرّة من غير حسنِ القصْد ، لما جرؤ على النطق بهذا القول الذي يغيظ الزّوجة التي لو سمعت منه قولاً آخر يُفيد إمكانية طواعيّته لها لسعتْ إلى إنقاذه من تلك الورطة ، وهي ذات المنزلة الكبيرة . إن جواب يوسف جواب من كانت نيته صادقة ونفسه طاهرة نقيّة .

ويقوم بإرادة الله تعالى العقل النيّر بدوره خير قيام ، ويُنقذُ الفتى من هذه الورطة لحين ، وذلك حينما تتم شهادة شاهد من أهلها ضدّها . ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصهُ قُدَّ من قُبل فصدقتْ وهو من الكاذبين . وإن كان قميصهُ قدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعْرِض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ . وتأمّلْ تقديمَ الشاهد من أهلها ﴿إنْ كان قميصهُ قُدَّ من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ فهذا يوافق رغبته ومنيته في ثبوت براءتها . وتأخيره بل واضطراره

لعقد هذه المقابلة المنطقية ﴿ وإن كان قميصهُ قُدَّ من دُبُر فكذبتْ وهو من الصادقين ﴾ وهذا يخالف هواه .

ومع ذلك فقد أحق الله الحق وأزهق الباطل .

على أن ما دار بين امرأة العزيز ويوسف وتبيّن حقيقة موقفها لاكته ألسنة النسوة في المدينة . وهذه الغيبة طبيعية من نسوة عشْن في مجتمع لاه عابث ، وخير دليل على فساد ذلك المجتمع هو أن العزيز لا يخطر بباله مجرّد التفريق في المنزل بين زوجه من ناحية والفتى من ناحية أخرى . وهنا تصمّم المرأة على توضيح عذرها أمامهن ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حُباً إنا لنراها في ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهنّ وأعتدتْ لهنّ متكئاً وآتت كلّ واحدة منهنّ سكيناً وقالت اخرج عليهنّ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

لقد كسبت امرأة العزيز الجولة ، وانتزعت المبرر لتصرُّفها مع يوسف بهذا الإجماع منهنّ على إكبار جماله . فتعترف أمامهن بأنها هي التي راودته عن نفسه وأنه تأبّى ﴿ قالت فذلكنّ الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ . وفجأة تتخذ من يوسف موقفاً أكثر صرامةً وإيجابيةً فبعد أن كانت تراود يوسف في الخفاء وبعد أن اتّهمته أمام زوجها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجنَ أو عذابٌ أليم ﴾ إذا بها تأمره بأن يمتثل لما تريده ﴿ ولئن لم يفعل ما آمرهُ ليسْجُنَنَّ وليكونَنْ من الصاغرين ﴾ .

وواضحٌ أنها وقد ظهرت براءته من قبل ، أمام الشاهد وزوجها على أقلّ تقدير ، تكتفي الآن بالسّجن وما يرتبط به من صَغار ، ولا تشير إلى العذاب الأليم الذي توعّدته به وبالسّجن أمام زوجها لأنّها وقتها كان عندها اعتقاد باحتمال لصوق التّهمة به . أمّا الآن فالتُّهمة لاصقة بها . لذلك

تكتفي بالإشارة إلى سجنه وإلحاق الصّغار به . لأنها بحكم منزلتها وفساد المجتمع قادرة على ذلك .

وهُنا يفرّ الشاب الصالح يوسف إلى ربّه معلناً عجزه وقلة حيلته ، فيستجيب له الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء .﴿ قال ربُّ السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهنّ وأكنْ من الجاهلين ، فاستجاب له ربهُ فصرف عنه كيدهنّ إنّه هو السميع العليم ، ثم بدا لهم من بَعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ . وهكذا يكون الانسجام التّامّ في تحقيق الغرضين ، الفني والدّيني معاً ، وهكذا يُزَجُّ بيوسف في السجن ظُلماً . وفكرةُ السجن هذه ليست غريبة علينا . فقد مرّت الإشارةُ إليها صراحة من قبل أكثر من مرة . وتهيأت النفسُ لتقبلها .

﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجنَ أو عذابٌ أليم﴾ ﴿ولئن لم يفعلْ ما آمره ليُسجننّ وليكونن من الصاغرين ، قال ربّ السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾ .

يوسف في السجن :

وفي السجن يكون دور آخر صحيح للرُّؤيا ، حينما قصّ الفتيان رؤياهما على يوسف ، وطلبا منه أن يعبرها لهما . لقد عرفنا ابتداء القصة رؤيا يوسف التي لمّا تعبرْ بعد . والآن تأتي رؤيا أخرى لها دور كبير جداً في دفع أحداث القصة إلى الأمام،فإن يوسف يُنسى في السجن ، ويكاد يبقى فيه إلى أن يُتَوَفّى لولا إرادة الله تعالى ، التي شاءت أن يرى ملكُ مصر رؤيا يعجز الجميعُ عن تعبيرها ، وهنا يتذكّر الفتى الساقي يوسف المعبّر للرؤى الذي سبق أن عبّر رؤياه ورؤيا صاحبه الفتى الخباز .

فما هي رؤيا الفتيين ؟ قال تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي

خُبزاً تأكل الطيرُ منه ، نبئنا بتأويله . إنّا نراك من المحسنين ﴿ وماذا كان جواب يوسف ؟ وهل عبّر لهما الرؤيا مباشرة ؟ لنتأملْ هذه الآيات ﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علّمني ربي ، إني تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون يا صاحبي السجن أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكمُ إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلّا إياه ، ذلك الدين القيم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربّه خمراً ، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه ، قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

وواضح أنّ الآية الأخيرة فقط تتضمن تعبير الرؤيا ، أما ما سبقها فمقدمة لها .

فكيف نوفّق بين ما سميناه بالوحدة الموضوعية في هذه القصة وبين هذه المقدمة التي وضعها يوسف بين يدي تعبيره للرؤيا ؟ إننا ما دمنا نعرف أنّ الغرض الأهمّ لرُسل الله تبليغ الرسالة وإيصال الأمانة والدّعوة إلى الله الواحد الأحد ، فإنا نستطيع أن نقول بكلّ ثقة واطمئنان إنّ هذه المقدمة بين يدي تعبير يوسف للرؤيا جزء لا يمكن أن يتجزأ بحال من الوحدة الموضوعية لهذه القصة . فها هو ذا يوسف عليه السلام ، يقوم بهذا الدور في سجنه ، ولولا أنّه ضرب المثلَ الأعلى في حُسن الخُلق لما خصّه الفتيان بطلبهما منه أن يعبّر رؤياهما . وقد انتفع عليه السلام من هذه الثقة فيه فدعاهما إلى نبذ الأرباب المتفرقين وعبادة الله الواحد القهار . ثم هو قد مهّد لهذه الدعوة نفسها بما يكسب به قلبيهما ويستميلهما إلى دين الله بأنْ أشار إلى العلم اللدنّي الذي خصّه الله به ، من استطاعته أن يعيّن لهما الطعام

قبل أن يأتيهما . لقد قدّم يوسف كلّ ذلك بين يدي تعبيره ، لأن ذلك هو الوقت المناسب لتقبّل الدّعوة ، خاصة من ذلك الذي سيُصلب فتأكل الطير من رأسه . فلو علم بهذه النهاية الأليمة قبل أن يدعوه يوسف عليه السلام إلى دين الله . لما وجدت الدعوة نفساً مستعدة لتلقيها .

وهكذا اتّضح لنا أن ما قدمه يوسف بين يدي تعبيره للرُّؤيا جزءٌ لا يتجزأ بحال من وحدة القصّة الموضوعية .

وبعد أن فسّر الرؤيا يطلب من الذي ظنّ أنه ناج منهما أن يذكره عند سيده الملك ، وهذا شيء طبيعي جداً من شخص يسجنُ في الغُربة ظُلماً ﴿وقال للذي ظنّ أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السجن بضع سنين﴾.

وهكذا تساوى طلبُ يوسف من الفتى أن يذكره عند سيده وعدم طلبه منه ذلك . وكاد يوسف يبقى في السجن حتى يُتوفّى ولكن رحمة ربّه كانت معه دائماً فشاءت إرادته أن يرى الملك رؤياه ، وهنا يأتي الدّور الثالث للرؤيا الذي يُحرّك أحداث القصة ويدفعها قدماً . قال تعالى : ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ وهكذا يحدث الإجماعُ بجهل تعبير الرؤيا ، وهنا فقط ، وبعد هذه الفترة الطويلة جداً يتذكر الساقي الذي نجا منهما ، يوسف الذي تحقّق بكل دقة تعبيره السابق لرؤياه هو وزميله الذي صُلب فأكلت الطير من رأسه . فيَعِدُ في ثقة واطمئنان بأنه سيعبّر رؤيا الملك .

ويلاحظ أن الساقي تذكر يوسف المعبر للرؤيا وليس صاحبه الذي طلب منه أن يذكره عند سيده الملك﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾. قال تعالى:﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمّة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ،

يوسفُ أيُّها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخرَ يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، وقال الملك ائتوني به ﴾ .

وهكذا وَصلَ تعبيرُ الرُّؤيا المقنع إلى أسماع الملك الذي يأمر بأن يؤتى إليه بيوسف ، ويلاحظ أن يوسف الحريص على نجاح رسالته لم يبخل على القوم الذين ما زالوا يسجنونه ظُلماً بتعبير الرؤيا التي يهمُّهم تعبيرها ، لا بل أنه أخلصَ النصيحة للقوم ومنحهم ما مَنّ الله تعالى عليه به من علم عن العام الخامِسَ عَشَر . فما موقف يوسف من طلب الملك ؟

إنه يعرف يقيناً أن بقاءه في السجن في تلك المدة الطويلة قَدَرٌ من الله عزّ وجلّ فيصبر ويمتثل . وحينما يطلبه الملك لمقابلته لا يفرح لخروجه من السجن ولا تهمّه هذه المقابلة وما سيترتب عليها في قليل أو كثير ، إنّما الذي يهمه حقاً هو أن يعرف الجميع أنه إنما زُجَّ به في السجن ظُلماً وعُدْواناً .

وهنا يبدو الخلقُ العظيم الذي يتحلّى به كلُّ نبي فيمسُّ عليه السلام المسألة مساً رفيقاً فلا يتعرض لامرأة العزيز ، السبب الأول في كلّ ما حلّ به إنما يتعرض لجماعة النسوة اللاتي قطّعن أيديهن ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجعْ إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إنّ ربي بكيدهنّ عليم﴾ ونتأملُ سؤال الملك للنسوة المتضمن ثقته في براءة يوسف .

وتمت البراءة فعلاً على لسان النسوة ، وتوّجها اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودت يوسف عن نفسه وأنه صادق في كل ما قال : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتُن يوسف عن نفسه ، قُلن حاش لله ما علمنا عليه

من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

وهنا يبدو غيضٌ من فيض أدب يوسف عليه السلام وتواضعه الجم ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرّيء نفسي ، إن النفس لأمارةٌ بالسُّوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾.

يوسف عزيز مصر :

وبعد أن ثبتت براءة يوسف للملأ ، لا يكتفي الملك باستدعاء يوسف كما فعل من قبل ، بل يتخطّى ذلك إلى استخلاصه لنفسه ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ وحينما جاء يوسف الذي رفض من قبل المجيء حتّى تثبت براءته ، يقول الملك له كما جاء في الآية ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وهكذا يتضح أن تحرك أحداث القصّة إلى الأمام مستمرّ دائماً وأن لطهر يوسف عليه السلام وأمانته دوراً كبيراً في تلاحق المشاهد .

وحينما اتضح ليوسف إيثار الملك له بالمكانة العالية وثبوت أمانته عنده وتبين له حقيقة الشدّة التي ستعمّ الآفاق ، والمجاعة التي ستعض الناس ، وعرف بإلهام من الله عز وجلّ أنه خير من يحسن القيام على خزائن أرض مصر للملك لم يتردّد عن القول كما جاء في الآية ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ فالمصلحة العامة هي التي تدفع يوسف إلى ترشيح نفسه لهذا المنصب الشاغر آنذاك لهذا العمل الجليل الذي يحتاج إلى أمانة وعلم . وتمّ ليوسف ما أراد ، وأصبح عزيز مصر ، ولعل سعادة الملك بتلبية طلب يوسف المكين الأمين عنده لا تقل عن سعادته عليه السلام بتهيؤ فرصة العمل الجاد النافع كي يستفيد من منصبه قوة تعينه على الدعوة لدين الله تعالى الذي ارتضى لعباده . وكان ذلك بعض جزاء الله له على إحسانه ، في الدنيا قبل الآخرة . فالذي يتنظره في الآخرة لا يعلمه إلا الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث

يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ . إن القرآن الكريم الذي يهدف إلى سعادة البشر في الدّارين ليقرر حقيقة أن الآخرة خير من الأولى .

رحلة الاخوة الأولى الى مصر :

ومرّت سنو الزرع السبع وأتت سبع الشدة ، كما جاء على لسان يوسف في تعبيره لرؤيا الملك . ولم تكن الشدة قصراً على مكان دون مكان ، ولا المجاعة وقفاً على جماعة دون جماعة ، وكان يوسف في السنين السّبع الأولى كما وصف نفسه ﴿ إني حفيظ عليم ﴾.

ونفذ ما نصح به الآخرين ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ فكان عنده وقت الشدّة فائض عن حاجته ، ويستطيع إذن أن يساعد المحتاجين.وطار ذكرُ يوسف الحَسَن في كل مكان وشُدّت إليه الرحال ، ومن بين الذين قصدوه للميرة إخوته قال تعالى ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ، وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منّا الكيل ُ فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا رُدّتْ إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيلٌ يسير ﴾ .

وهكذا جاء إخوة يوسف إليه بعد هذه المدة الطويلة جدّاً . وكان طبيعياً أن يعرفهم وينكروه ، لأنه لم يكن يخطر ببالهم أصلاً أن يكون عزيز مصر

الذي أمامهم أخاهم يوسف الذي ألقوه في غيابة الجب ، ولعلهم كانوا يعتقدون احتمال هلاكه في صورةٍ من الصُّور الممكنة ، وما أكثرها ! وكان الكريم يوسف سخياً معهم بالذات إلى أبعد درجات السّخاء . ولم يكن شقيق يوسف قد جاء معهم ، لأن يعقوب كان يتعزّى به عنه ، ولكن يوسف كان يريد أن يُبقي شقيقه عنده تمهيداً لطلب أهله كلهم في الوقت المناسب وإبقائهم معه . فما هي الخطوات التي اتخذها يوسف في سبيل جلب شقيقه إليه وإغراء والده بالسماح له بمفارقته ؟

عَرَفنا أن يوسف كان كريماً مع إخوته ، فجهزهم بجهازهم ، وكان على علم تام بحاجتهم الشديدة إلى الطعام وأنهم سيُضطرّون إلى العودة إليه ثانية للغرض نفسه . وهنا طلب منهم أن يأتوه بأخيهم من أبيهم ، شقيق يوسف ، ووعدهم بإكرام هذا الأخ إذا ما جاء وإكرامهم ضِمنا لأنهم أثبتوا بالإتيان بالشقيق أنهم صادقون في كل ما يقولون ، وليس هناك داع لأن يظهر العزيز ارتيابه منهم مرّةً ثانية . وكان يوسف يتوقّع الصُّعوبات التي تعترض مجيء شقيقه فشحذ هِمم الإخوة في الطّلب بأنْ قَطع عليهم خَطّ العودة دونه ، بل طلب منهم صراحةً ألا يقتربوا منه إذا لم يكن أخوهم من أبيهم معهم ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾. وكانوا يتوقعون معارضة أبيهم الذي كان يتعزّى بالشقيق عن يوسف ويعرفون حاجتهم الملحة إلى الطعام ، لذلك تضمن جوابُهم الإشارة إلى المجهود العظيم الذي سيبذلونه مع والدهم في سبيل تحقيق رغبة العزيز ﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾.

فهل اكتفى يوسف عليه السلام بهذا الوعد منهم ؟ لا لم يكتف ، وإنما وضع المغريات لهم بالعودة إليه ، فطلب من فتيانه أن يضعوا بضاعة (١)

---

١ ـ جاء في « ظلال القرآن » ١٢/١٣ عن البضاعة « وقد تكون خليطا من نقد ومن غلات صحراوية من غلات الشجر الصحراوى ، ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم في التبادل في الاسواق » .

الإخوة في رحالهم . وحينما يعودون إلى أهلهم يجدون البضاعة التي أصبحت حقاً للعزيز وهم الذين لا يستحلون حراماً فيتعجلون العودة . وفي ذلك حافز بالإضافة إلى الحوافز الأخرى على أن يعودوا إليه بشقيقه .

﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ .

ويجملُ بنا أن نتذكر تماماً هذا الصنيع من يوسف ، فهذه هي طريقته مستقبلاً في سبيل إبقاء شقيقه معه بعد أن جاءه . قال تعالى: ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذّن مؤذّن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ .

ورجع الإخوة إلى أبيهم ، وكان أوّل ما تفوهوا به منع عزيز مصر الكيل لهم مستقبلاً مبينين السّبب في ذلك وهو عدم وجود أخيهم معهم ، وأنه إذا ذهب معهم سينالون هم وإياه ما نالوا من قبل ، ولم ينس الإخوة ما سبق أن فعلوه مع يوسف لذلك استدركوا على أنفسهم بحفظ أخيهم في صيغة التأكيد « لحافظون » وكأنهم ينفون عن أنفسهم التهمة اللاصقة بهم ، من عدم حفظهم ليوسف ، وكأنهم لا يريدون ليعقوب أن يتعرض لما حدث ليوسف فتورطوا فيما حاولوا الفرار منه ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ إن يعقوب عليه السلام على يقين من أن الله عز وجل خير من يحفظ وأنه أرحم منه بأبنائه .

وكاد الأمر يقف عند هذا الحد ، فلا يريد يعقوب أن ينكأ جراحه القديمة بإطالة الحديث عن يوسف ، ولا يجرؤ الإخوة الذين يلازمهم شبح جريمة إلقاء يوسف في الجب أن يثيروا الحديث في المِيرَة لأنها مرتبطة بأخيهم من أبيهم الذي يتسلّى به يعقوب عن يوسف وهنا يلعب وضع يوسف البضاعة في رحالهم دوره فيخرج الإخوة من صمتهم والأب من تمسّكه بشقيق يوسف بنيامين وتأخذ أحداث القصة في التقدّم إلى الأمام .

﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردَّتْ إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيلٌ يسير ﴾ .

وهكذا كان وجود ثمن البضاعة في رحالهم الذي لم يتوقعوه مطلقاً قادراً على جعل الإخوة يعودون إلى الحديث في الموضوع نفسه ليس في عجالة كما حدث من قبل بل في شيء من الطول . ونلاحظ فوق هذا أن روحهم المعنوية ارتفعت بعد وجودهم ثمن بضاعتهم ، فبعد أن اهتمّوا بمنع الكيل فقدموه في حديثهم من قبل إذا بهم الآن يهتمون بالحديث عن الطعام الذي يمكن جلبه وحفظهم لأخيهم ، وقد افترضوا سماح يعقوب لهم بأخذه معهم وزيادة كيل بعير هو نصيب هذا الأخ . كما اهتموا بالإشارة إلى كرم عزيز مصر بأن كيل البعير هذا هينٌ يسيرٌ عليه .

وقبل أن ننتقل إلى الحديث في موقف يعقوب الذي تغير نودّ أن نقف عند قول الإخوة عن الشقيق ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ فإنهم صادقون كلَّ الصّدق هنا . ولم يكونوا كذلك حينما قالوا عن يوسف ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ إذ لم يكونوا يحسدون الشقيق حسدهم ليوسف .

ثمَّ إن حزن يعقوب على يوسف ، الذي لم يكونوا يتوقعونه بهذا العنف ، كان له أثرٌ فعالٌ في نفوسهم وفي نفس كبيرهم على وجه الخصوص كما سنرى .

ويعقوب عليه السّلام في تفريعه لهم يشير إلى الأمن الذي سبق أن تفوهوا به بصدد يوسف ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ . بقوله لهم كما جاء في الآية ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ إن يعقوب كان يشعر بحسد الإخوة الشديد ليوسف ، وحينما طلبوا منه أن يرسله معهم غداً كي يرتع ويلعب لم يكن عنده دليلٌ حسّيٌ يجعله قادراً على رفض طلبهم لذلك اكتفى بالتعبير عن حزنه على

ذهابهم به وخوفه أن يأكله ذئب من الذئاب المنتشرة في تلك الأصقاع ، أما الآن فإن عنده الأسباب التي تدفعه إلى رفض طلبهم بل وتقريعهم .

وكيف غير يعقوب من موقفه وخرج عن صمته ؟ قال تعالى على لسانه: ﴿قال لن أرْسِله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ . إن يعقوب كان على ثقة تامة من أنّ الله عزّ وجلّ هو الفعّال لما يريد ، وإن شاء حفظ وإن شاء لم يحفظ ، لهذا هو يستدرك على قول الإخوة ﴿وإنا له لحافظون﴾ وقوله : ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ بالقول: ﴿فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ فلا يكفي مثلاً حفظُ الإخوة إن لم يشأ الله حفظ أخيهم .

ولا تقاسُ مثلاً رحمةُ يعقوب بأبنائه برحمة أرحم الرّاحمين بهم، ولكن يعقوب الحزين لفراق يوسف المتعزّي بشقيقه عنه ، المكلوم من أبنائه الذين فرّطوا في يوسف من قبل ، يطلب من هؤلاء الإخوة أن يعطوه عهد الله وميثاقه الذي يجعله يطمئنّ إلى أنهم سوف يأتون إليه بشقيق يوسف ولا يكونون سبباً في الحيلولة بينه وبين العودة إلى يعقوب . ولا يتعرّض يعقوب البتّة للقضاء والقدر وما يمكن أن يصيب الإخوة جميعاً مما لا يد لهم فيه ولا طاقة لهم على دفعه . لهذا جاء استثناؤه المباشر ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ ولهذا اكتفى يعقوب بعد أخذ الموثق إلى الحديث عن هذا الموثق بأن الله عز وجل على ما نقول وكيل ﴿فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾

ولا يقتصر خوف يعقوب الأب على يوسف وشقيقه بل يشمل كلّ أبنائه بطبيعة الحال ؛ لهذا كان يخاف عليهم إذا دخلوا من باب واحد أن تصيبهم العين فنصحهم ألاّ يدخلوا المدينة من بابٍ واحدٍ وأن يدخلوا من أبواب متفرّقة ، ولا ينسى أن يقرر أنّ ما أراده الله عز وجل سيحدث ،

وأنه من المتوكّلين على الله ، وأنّ واجب كلّ مؤمنٍ التوكّلُ على الله ، وأن التّوقّي ليس معناه عدم التوكل أو معارضة القضاء والقدر .

قال تعالى : ﴿ وقال يا بنيّ لا تدخلوا من بابٍ واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكمُ إلاّ لله ، عليه توكلت وعليه فليتوكلِ المتوكلون ﴾ .

رحلة الاخوة الثانية الى مصر :

وينطلق الإخوة متوجهين إلى مصر ويدخلون المدينة في الصورة التي طلبها منهم والدهم ، وهنا تشير الآية الكريمة إلى أنّ هذا الطلب من يعقوب لأبنائه ألاّ يدخلوا من بابٍ واحدٍ وأن يدخلوا من أبوابٍ متفرّقة خوف العين إنما كان بإيحاءٍ من الله عزّ وجلّ ، وفي ذلك تأكيدٌ لحقيقة وجود الحسد ، وبواجب الإنسان أن يتوقّى ، وبأن التّوقّي لا ينافي التوكّل . قال تعالى : ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيءٍ إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه . ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

ودخلوا على يوسف أخيراً ، وقرّب إليه شقيقه بصفةٍ خاصّة ، وعرّفه بنفسه وطيّب خاطره ، وطلب منه ألاّ يستاء في نفسه لمعاملة إخوته السيّئة ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إنيّ أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ .

والآن نتساءل : كيف احتفظ يوسف بشقيقه ؟

عرفنا أن يوسف وضع من قبل ثمن بضاعة الإخوة في رحالهم بقصد أن يضمن عودتهم إليه ومعهم شقيقه ، والآن هو يقوم بعمل من النّوع نفسه ، ولكن بقصد أن يبقى معه شقيقه . إنّ يوسف يضع من قبل ثمن البضاعة على أمل أن تكون سبباً في عودة الإخوة بالشقيق . والآن هو

يضع صُواع الملك ، في رحل شقيقه بعد التفاهم معه بقصد أن يبقى هذا الشقيق معه ، وعنده أملٌ كبيرٌ بعون الله عزّ وجلّ أن ينجح في هذا الإبقاء .

وهكذا يتضح أنّ وضع يوسف صواع الملك في رحل شقيقه ليس عملا غريباً علينا ولا مفاجئاً لنا فقد سبقه عملٌ من نوعه . وهكذا تسير الأمور كلها سيراً طبيعياً .

قال تعالى : ﴿فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنابه زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجدَ في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين﴾ .

إن إخوة يوسف ، إذا استثنينا معاملتهم ليوسف وشقيقه . كانوا آية في النُّبل وحسْن الخلق ، لهذا كانت هذه العبارة ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ مستفزّة لهم كل الاستفزاز ، فجاء على لسانهم بعد أن أقبلوا على الفتيان والمؤذّن ﴿ماذا تفقدون﴾ وكان الجواب معروفاً بطبيعة الحال ﴿نفقد صواع الملك﴾ وهنا يجيء على لسان المؤذّن إغراءٌ من جنس إغراء الإخوة بالذّهاب إلى مصر وإغراء يعقوب بالسماح للإخوة بأخذ الشقيق معهم . ألا وهو إغراء الطعام . إنه حِملُ بعير مكافأةً لمن جاء بصواع الملك ويكون وعدٌ أكيدٌ من المؤذّن بالوفاء لمن أحضر الصواع ﴿ولمن جاء به حمل بعير وأنابه زعيم﴾ .

إنّ جوّ المجاعة يظلّ يلعب دوره ، وإنّ الحاجة الملحّة إلى الطعام تفرض معجماً لغوياً من نوع معين . فهناك كيل البعير الذي توقّع الإخوة أن يعودوا به مع أخيهم زيادة على الكمية التي عادوا بها في المرة الأولى ، وهنا حمل البعير الذي يوعَدُ به من يعثر على الصواع ويعيده ، إن الإغراء

في الموضعين حاصل وبالشيء نفسه أيضاً . فنحن بصدد تدرُّج في الانتقال طبيعيّ . وهناك قبل هذا وذاك أكثر من إشارة إلى عملية الكيل التي مرّت في الآيات السابقة مباشرة . وحينما يأتي الإغراء الثاني ﴿حمل بعير﴾ تكون النفس مهيأة لتلقيه والارتياح إليه . وكيف لا يكون وضع النفس هكذا ونحن بصدد نهر من القول عميق المغزى هامس التدفُّق الدّال على غزارة المضمون .

وكان جواب الإخوة بالتّالي منطقياً ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ لقد عزّ عليهم أن يلصق بهم ما ليس منهم لهذا هم ينفون عن أنفسهم أن يكون القصد من التوجُّه إلى العزيز الإفساد في الأرض . ويستشهدون بماضيهم بصفة عامّة وبرحلتهم السابقة إلى العزيز بخاصّة . ﴿وما كنا سارقين﴾ . فلم يحدث مثلاً في المرّة الأولى شيء كهذا أو قريبٌ منه .

وقبل أن ننتقل إلى الآيات التاليات نودّ الوقوف عند نقطة صريحة جداً هيَ حدّ السّارق في عُرْفِ يعقوب وإخوة يوسف من ناحية ، وملك مصر من ناحية أخرى .

لقد « كان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة »(١) وفي عُرْف الملك « أن يغرَّم مثل ما أخذ لا أن يُلزم ويُستعبد »(٢) وهنا تتدخل العناية الإلهيّة لأمر يريده الله عزّ وجلّ ويتمّ سؤال إخوة يوسف عن الجزاء الذي يستحقه من وجدوه في رحله ، فكان جوابهم بطبيعة الحال موافقاً لرأي يعقوب إذ لم يكن من المعقول أن يترك الإخوةُ حُكم أبيهم ، نبيّ الله يعقوب . ويفروا إلى رأيٍ بشريّ وحكم وَضْعِيّ .

فلنتأمّل قوله تعالى ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه

---

١ ـ الكشاف ٢ ـ ١٤٨ .

٢ ـ الكشاف ٢ ـ ١٤٨ .

من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ لقد كان طبيعياً أن يبدأ التفتيش بإيعاء من يوسف ، بأوعية الإخوة وكان طبيعياً أن تستخرج السقاية من وعاء شقيقه .

ونحن نودُّ تأمّل قوله تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ فلو لم تتدخل العناية الإلهية . ويحدث الإلهام من الله عزّ وجلّ بسؤال الإخوة عن نوع الحكم الذي يرتضونه للسارق ، واختيارهم بأمرٍ من الله تعالى لحكم يعقوب ، لما كان كيد يوسف بوضع السقاية في رحل أخيه وثبوت تُهمة السرقة عليه في الظاهر ، كافياً لإبقاء الشقيق .

كما نودُّ تأمّل قوله تعالى ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾ فالعادةُ جرت أن ينفذ كل بلدٍ الحكم الذي يرتضيه . وكان المفروض أن ينفّذ بحقّ الشقيق حكم الملك . ومع وجود هذا الحكم الصّالح في نظر القوم المرضيّ عنه في قرارة أنفسهم إلا أن إرادة الله شاءت ليوسف أن يأخذ أخاه فعطّل حكم البشر ونفّذ أمر الله وحُكمه .

كما نودُّ تأمّل قوله تعالى ﴿ نرفع درجات من يشاء ﴾ إن يوسف عليه السلام صبر واحتسب وعبد الله حق العبادة ، ودعا إلى دينه ، فوهب له الله في الدُّنيا سلطةً وعلماً لدنياً ونعماً لا يأتي عليها الحصر ، ورفع من منزلته في الدنيا ومن درجته في الآخرة كما قال تعالى ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

ثم تأتي هذه الجزئية ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ فمهما بلغ المخلوق من العلم ، كائناً من كان ، فإن الله عزّ وجلّ فوق كلّ ذي علم . ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾(١) وهذه الجزئية ﴿ وفوق كلّ ذي علمٍ

---

١ ـ الإسراء ، ٨٥ .

عليم﴾ . درسٌ لا يغيض ولا ينفد لكل ذي علم . وعلى سبيل المثال هل كان علم يوسف إلاّ إلهاماً من الله عزّ وجلّ ؟

وهكذا يفي السياق بالغرضين الدينيّ والفنيّ معاً .

وصعق الإخوة لهول المفاجأة ، وسُقِط في أيديهم وداهمتهم أفكار شتّى . إنهم لم يخطر ببالهم قطّ أن يكون الصُّواع في رحل أخيهم وقد كان . ثم هم أدركوا خطورة الحكم الذي سبق أن أصدروه في حق السّارق وهو الرّق . فما معنى هذا ؟ معناه أن يعودوا إلى أبيهم دون الشّقيق . وأين الوعود المعسولة التي قدّموها لأبيهم ؟ كيف سيواجهونه دون أخيهم وقد أعطوه عهد الله وميثاقه ليأتُنّه به ؟ حقاً إنّ ما حدث لشقيق يوسف يدخل ضمن قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ .

ولكنهم يتساءلون في أنفسهم متى يصدّق يعقوب أن ما حدث كان قضاءً وقدراً ، ونحن الذين سبق أن فعلنا بيوسف ما فعلناه ؟ إنّ تصديقه سيكون بعد فترة ، ولكن بعد أن يكون الحزن قد أوشك أن يفتك به ، كيف يفاجأ يعقوب الآملُ في عودة يوسف يوماً من الأيام فضلاً عن شقيق يوسف ، بجرح من نوع الجرح الأوّل ، وفي المكان نفسه ؟ إنّ معنى هذا أن يتبدد الأمل وتبقى مع الأحزان أحزان وقديماً قيل : ولكنّ نكء القَرْح بالقَرْح أوجع » (١) .

وما القَرْح هنا ؟ إنه يوسف : وقد حدث من يعقوب نوعٌ من التداوي بشقيقه عنه ، والآن يذهب الدواء أيضاً . إن الإخوة يعرفون يقيناً منزل هذا الأخ عند أبيهم ، ولا يجهلون أنه يتعزّى به عن يوسف ، الذي تخلصوا منه لحسدهم له .

---

١ ـ مجمع الامثال للميداني ٣٤٢/٢ ، مثل رقم ٤٢٥٨ ، يعني أن القرح إذا جلب (قشرت جلدته) ثم نكىء كان اشد إيجاعا ، لانه يقرح ثانيا ، كانه قيل : نكء القرح مع القرح ، اى مع ما بقي منه ، أوجع ، الميداني .

وقد تحوّل هذا الحسد الآن إلى حقد . ومن هذه النقطة نقطة الحقد انطلقوا وقالوا كما جاء في الآية ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل ﴾ إن يوسف سبب بلائهم بالأمس ، وشقيقه سبب بلائهم اليوم ، لأنه ثبتت للعين سرقته وسيجرّ عليهم ذلك الكثير من الويلات . وبما أن الشقيق يشارك يوسف في حبّ أبيه له ، سبب حسدهم ليوسف ، والآن قد قام بهذه السّرقة ، فهنا تقذف هذه الحادثة إلى أذهانهم بحادث سابق قام به يوسف الغلام الصغير جداً . فقد كان هناك صنم يُعبَد من دون الله ، فعمد يوسف إلى سرقته فكسره . ومع أن هناك فرقاً جوهرياً بين ظاهر سرقة شقيق يوسف وسرقة يوسف للصنم ، ولم يكن الإخوة يجهلون الفرق بين العملين ، وبين سن يوسف آنذاك وسنّ الشقيق الآن ، إلا أن الحقد الذي تفجّر في أنفس الإخوة لا يمانع أنْ يُبهِمَ الإخوة في التعبير فيفهم أن السرقتين من نوعٍ واحد . ﴿ قالوا إن يسرِقْ فقد سرق أخٌ له من قبل ﴾ .

وماذا كان موقف يوسف عليه السلام ؟ لقد أسرّ في نفسه هذا الاتّهام له ، وكان بعون الله عزّ وجلّ ، قادراً على أن يكظم غيظه ، وذلك عين الحِلم ، واكتفى بوصفهم على حقيقتهم بناء على اتهامهم له ، وفعلهم السابق معه ومع شقيقه . قال تعالى :

﴿ فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم ، قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ .

وواضح أن الجزئية الأخيرة ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ تتعلق بالاتّهام . إنها تقرّر أن الله عزّ وجلّ وحده هو العالم بحقيقة ما وصفوا به أخاهم يوسف.

وواصل الإخوة الحديث في الموضوع الذي يشغل بالهم . قال تعالى: ﴿ قالوا يا أيُّها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾ . إنهم يطلبون من العزيز الذي أحسن إليهم دائماً أن يُحسِن إليهم إزاء هذه الورطة التي كانوا هم أنفسهم من المساعدين عليها حينما

أعلنوا اختيارهم لحكم يعقوب بحقّ السّارق . فطلبوا من العزيز ، رحمة بأبيهم الشيخ الكبير ، أن يأخذ واحداً منهم مكان شقيق يوسف وأن يُطلق سراح هذا الشقيق . ولكنّ يوسف العادل يجيبهم كما جاء في الآية الكريمة ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وَجدْنا متاعنا عنده ، إنا إذن لظالمون﴾ . وهل تؤخذُ نفسٌ بوزر أخرى ؟ إن من يفعل ذلك يظلم غيره ونفسه .

وكان الجواب المنطقيّ ليوسف حاملاً لهم على اليأس غير المحدود ، ولكنه يأس غير مريح . فانفردوا واعتزلوا الناس وأخذوا يتناجون فيما بينهم . قال تعالى:﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً﴾ .

وإذا كنا اعتبرنا إلهام الله تعالى ليوسف بأن يسأل إخوته عن نوع الحكم الذي يرتضون تطبيقه على السّارق ، واحداً من الأدلّة القويّة على أن الأمور في نظر الإخوة تسير سيراً طبيعياً ، وأن يوسف محقٌّ في عدم الكشف لإخوته عن حقيقة نفسه . فإنّ اتّهام هؤلاء الإخوة ليوسف بالسرقة دليلٌ آخر قويٌّ على أن الإخوة لا يزالون منشقّين على أرومة آل يعقوب الطيّبة الطاهرة ، وأن نفوسهم لما تَصْفُ وقلوبَهم لما تَطْهُر. وإن من حقّ يوسف عليه السّلام الحريص على عودة الإخوة إلى الأرومة الطيبة كي يلتحموا بها ويذوبوا فيها ، ألا يكشف للإخوة عن حقيقة شخصيته . ولا يمكن أن ننسى بحال العقوبات النفسية والجسديّة التي حلّت بيوسف منذ وضع الإخوة له في غيابة الجب حتّى خروجه من السجن . أما هو فقد اكتفى بمعاقبتهم نفسيّاً .

وما دام شعور الإخوة تجاه يوسف ما زال سيئاً فمعنى هذا أنّهم يستحقّون كُلّ عقابٍ نفسيّ يحل بهم ، ومعنى هذا أنه لم يحن الوقت كي يكشف يوسف لإخوته عن حقيقة نفسه .

ولتسرِ الأمورُ في مجراها الطبيعيّ الذي أراده لها أرحم الرّاحمين . وما دمنا بصدد تصرّفات يوسف عليه السلام الرجل الحازم الحصيف

الواعي ، فليس هناك ما يمنعنا من الاستئناس برأي الجاحظ(١) في هذا المجال .

« من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الرّب في تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربّه .

وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ، ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشرٌّ منه من كان شرُّه صرفاً . ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والإطماع والإخافة . ومن أخاف ولم يوقع وعُرف بذلك ، كان كمن أطمع ولم يُنجزْ وعُرف بذلك . ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عُرف منه فخير الخير ما كان ممزجاً ، وشرُّ الشّرّ ما كان صِرفاً ، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عزّ وجلّ ، أولى بذلك الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب دليل على أن الصّواب فيه دون غيره وإن كان الناس إنما يصلحون(٢) على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر - وكذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوباً ، وإنما الشأن في العواقب ، وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد » .

وإن النبيل يوسف عليه السلام حينما اطمأن إلى عودة الإخوة إلى

---

١ ـ نقلا عن مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢/١١٠٥ .
٢ ـ في الاصل « يصطلحون » .

أرومة آل يعقوب المباركة الطيبة عرّفهم بحقيقة نفسه وترفع عن اللوم مجرّداً . كما سنرى .

وبينما كان كلُّ واحدٍ من الإخوة متلهفاً لأن يسمع من أخيه رأياً سديداً لمعالجة هذه القضية العويصة التي تستهدف في الحقيقة والدهم يعقوب الشّيخ الفاني ، إذا بعقاب نفسي ، يندفع هذه المرة من بينهم مدوّياً كالإعصار في القول الذي جاء على لسان كبيرهم وأعقلهم الذي عصوه من قبل وأصروا على التخلص من يوسف ، فاقترح إنقاذاً منه لحياة يوسف وضعه في غيابة الجب بدلاً من رأيهم بقتله أو طرحه أرضاً مُهْلِكة يرْجُح منها احتمال هلاكه . قال تعالى :

﴿ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾.

ونفّذ الإخوة بكل دقة تعاليم أخيهم ونقلوا كلامه إلى يعقوب والدهم . ولا يخفى أن تعبير الإخوة هنا يختلف عن تعبيرهم حينما جاءوا بقميص يوسف وليس هنا محاولة لنفي الكذب عنهم ، وهو ما كان يشغل بالهم في المرّة الأولى . ثم إنّ هنا حصراً لاهتمامهم في أنفسهم وليس تشتيتاً له بين كذب دعاواهم من ناحية ، وموقف أبيهم الذي يتوقعونه مكذّباً لهذه الدعاوي من ناحية أخرى . وإن هنا هذا القول الحازم ﴿وإنا لصادقون﴾ وإن هناك ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ وإنا نشمّ من لو معنى الاحتمال .

وماذا كان موقف يعقوب من هؤلاء الإخوة ؟ قال تعالى: ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ، وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت

عيناه من الحزن فهو كظيم ، قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ، قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

وهكذا يتضح أن ما فعله يوسف عليه السلام مع إخوته هو العدل عينه وهو الصواب .

وقد يقول قائل : وما ذنب يعقوب عليه السلام يتعذّب كل هذا العذاب من أجل خطأ ارتكبه أبناؤه ؟ وهذا سؤال وجيه .

والجواب عليه هو أنه من المعروف أن يوسف عليه السلام ، نبي الله تعالى المصطفى لم يكن يصدر في تصرفاته عن هوًى نفسي أو رأي شخصي . إنما كان يتصرف بوحي من خالقه تعالى . أو لم يجيء إزاء كيد يوسف لإخوته بوضع صواع الملك في رحل أخيه قوله تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ؟ بلى . وهذا معناه أن كل ما ينال يعقوب عليه السلام من آلام فإن ذلك نوع من اصطفاء الله تعالى له بالابتلاء . وقد أثابه الله تعالى عليه في الدنيا قبل الآخرة . وقد قال تعالى ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾.

ولانسى أن مصاب يعقوب عليه السلام الأكبر كان بسبب غياب ابنه الحبيب يوسف ، ولا يد ليوسف في غيابه عن أبيه . بل إن إخوته أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم فألقوه في غيابة الجب . ولم يكن ليتم شيء من ذلك لولا أن إرادة الله تعالى شاءت لذلك الأمر أن يتم . فدل ذلك على أن هذا نوع من ابتلاء الله تعالى ليعقوب عليه السلام .

وحينما نتأمل عدم عودة شقيق يوسف والأخ الأكبر إلى يعقوب ، فإن ذلك الابتلاء في حقيقته موقظ لآلام يعقوب على يوسف .

وإن العمى الذي حل بيعقوب كان بسبب بكائه المتواصل على يوسف وليس بسبب عدم عودة الابنين الآخرين اللذين بقيا في مصر بسبب كيد يوسف للإخوة . ومعروف أن يوسف عليه السلام إنما بقى في مصر مع إمكان عودته إلى الشام قبل مجيء إخوته إليه لأنه عليه الصلاة والسلام صاحب رسالة وحامل أمانة . وإن بقاءه في مصر حيث يدعو إلى عبادة الله تعالى ونبذ الأرباب المتفرقين أَوْلَىَ من عودته إلى الشام حيث يعقوب عليه السلام وآله .

ومعنى هذا أن يوسف عليه السلام آثر في سبيل الله تعالى التّعب والنّصب على الراحة والأهل والخلان . وحينما أذن له تعالى أن يكشف عن حقيقة نفسه لم يكن هناك من شيء يشغل باله كوالده يعقوب عليه السلام . وإن ما قام به عليه السلام آنذاك تجاهه هو البِرّ كلّ البِرّ . ولا يستغرب الشيء من معدنه بطبيعة الحال .

وإزاء طلب يعقوب من أبنائه أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه لا نجد الإخوة ينبسون ببنت شفة فليس هناك أدنى إشارة إلى أكذوبة الفتك بيوسف أو أن يوسف ليس على قيد الحياة كما زعموا من قبل .

وإن وضع الإخوة من الوجهة النفسية لا يسمح لهم أن يرددوا ما قالوه بعد وضع يوسف في غيابة الجب ، فليس عندهم ذرة من أمل أن يصدّق يعقوب زعمهم . إنه لم يصدق ذلك حينما كان حزنه طفلا فكيف يصدقه وقد شب حزنه واستفحل ؟ فليس عنده الاستعداد أصلا لسماع مثل هذا الزعم . ولعل المنفذ الوحيد الذي بقي للإخوة هو ما سبق أن جاء في قول الأخ الأكبر ، صاحب الاقتراح الثالث بـ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ في قوله تعالى:﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

حقّاً ، لقد كان كبيرنا أكثر ألمعية منا وفطن لما غاب عنا . ألم يأت

بلفظ الجب معرفاً بأل العهدية ، مشيراً بذلك إلى الجب الذي اعتدنا الذهاب إلى المكان القريب منه بقصد أن نرتع ونلعب ؟ أليس بالقرب من ذلك الجب طريق عامرة بالسيارة الذاهبين والآيبين ؟ أليست الحاجة إلى الماء مُلِحَّة دائماً ؟ أفلا تكون سيارة قد جاءت فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فوجد يوسف وماذا يمكن أن يفعل بيوسف لو وجده ؟ سيعود به إلى السيارة . وما موقف السيارة من هذا الغلام الصغير ؟ أيبقونه معهم وسيكونون عرضة للسؤال من أين جئتم بهذا الغلام ؟ أم يتخلصون منه بطريقة ما ؟ هل يفكرون في قتله أو طرحه أرضاً كما فكرنا ؟ ولماذا كل هذا ؟ لقد كنا نحسده وليسوا كذلك .

إذن يتخلصون منه بالبيع وتقاسم ثمنه ؟ ربما . ولكن من الذي اشتراه وأين كان الشراء والقوافل تتجه عادة كل صوب ؟ وأين توجه به الذي اشتراه ؟ لقد مرت سنون وسنون فهل ما زال يوسف حياً يرزق أم أنه مات ومضى كأمس الدابر ؟ ولو صح أنه قد مات فعلا أليس يعني ذلك ضمناً احتمال موت والدنا يعقوب ؟ هب أن يوسف قد مات وعرفنا سبيله ، فما ذنب والدنا يموت لموته ؟ ولكن والدنا يقول : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

إذن فاحتمال بقاء يوسف حياً هو الغالب ، بل هو الراجح ، بل هو الوحيد . إن أملنا في الله ببقاء يوسف حياً يجب أن يكون باقياً . ألم يقل والدنا ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ ؟ إننا مسلمون لله رب العالمين ، فكيف نيأس من رحمة الله ؟ ولكن ما العمل ؟ كيف نقول ؟ ما العمل ووالدنا نبي الله يعقوب ، يقول لنا صراحة ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ .

والحقيقة أن وضع الإخوة أصبح يشبه وضع المتّهم الذي تصرف فيما ليس له حق التصرف فيه . ويجد نفسه أمام القاضي . ويوقن المتّهم بعد

طول إنكار بأن عليه أن يحضر ما تصرف فيه دون حقّ . ويبيح له القاضي ، دون إرغامه على الاعتراف الناطق أن يُفَكَّ بكفالة كي يتمكن من إعادة الحقّ الذي تصرف فيه إلى أصحابه الشرعيين ، مرشداً له الطريق الممكن له أن يجد ضالته فيه ، مزوداً له بالكثير من الأمل والتشجيع ، وإنّ الكفيل بالنسبة لإخوة يوسف معنويّ . هو حرصهم الشديد على إنقاذ حياة والدهم الذي أخذت صحته تتدهور تدهوراً ملحوظاً . وما معنى أن يوافق المتهم مع شيء كبير من الرضا على الضرب في الأرض كي يعيد الحق إلى نصابه ؟ معناه الاعتراف الضمني بأن ما اتّهم به له أساس كبير من الصحة .

وما معنى أن يوافق الإخوة على الذهاب بحثاً عن يوسف بالذات وأخيه كذلك ؟ معناه الاعتراف الضمني بأن ما اتهموا به بصدد يوسف على أقل تقدير له أساس كبير من الصحة ، ومعناه أيضاً سحب اعترافاتهم واتهاماتهم السابقة ، التي أدلوا بها أمام يعقوب بعد جعل يوسف في غيابة الجبّ .

ونحن في حقيقة الأمر لا نملك إلا أن نكبر لهؤلاء الأبناء التسعة موقفهم الإنساني النبيل من والدهم . إن يعقوب عليه السلام حينما يجيء على لسانه بشأن عدم عودة بنيامين قوله تعالى: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ . يسكت هؤلاء الأبناء البررة . وإنهم ليتحملون بسكوتهم فوق ما يطيقون ، ولكنهم يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم لذلك مستحقون . لأن لهم يداً في عدم عودة يوسف . وحينما يطلب إليهم يعقوب أن يتحسسوا الأخبار الطيبة الحسنة عن يوسف وشقيقه فإنهم يسكتون . وإن هذا الموقف الثاني الصامت ، يعتبر من أكثر المواقف للإخوة نُبْلاً ودليلا على شعور الإخوة بتأنيب الضمير . هذا بالإضافة إلى أننا في حقيقة الأمر أمام أوّل اعتراف علنيّ للإخوة بأن لهم يداً في عدم عودة يوسف إلى أبيه . وهذا الاعتراف أمام من ؟ إنه أمام من يهمّه الأمر بالدرجة الأولى ، يعقوب عليه السلام .

وهكذا يتضح لنا أن الإخوة أخذوا في العودة حثيثاً للأرومة الطيبة التي سبق أن انشقوا عليها ، أرومة آل يعقوب ، وإنّ هذه العودة خير مهيىء لأنفسنا لتوقع كشف يوسف لإخوته عن حقيقة نفسه .

رحلة الإخوة الثالثة الى مصر :

والآن نتساءل : أين سيتوجه الإخوة ؟ إن والدهم يأمرهم بالذهاب ولكن لا يعين لهم الجهة . هل في إمكانهم أن يذهبوا حيث يوسف تمشياً مع قول يعقوب فتحسسوا من يوسف ؟ لم يكن ذلك ممكناً بطبيعة الحال لأنهم يجهلون كل شيء عنه ولكن جاء في قول يعقوب: ﴿ فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ وأين أخوه ؟ إنه في مصر . أو ليس هناك عزيز مصر يكرم وفادتهم دائماً ؟ أو ليس هناك أخوهم الأكبر ؟ أو ليست الحاجة إلى الطعام ما زالت قائمة ؟ إذن فقد تحددت وجهتهم إلى مصر وانطلقوا على بركة الله ، وبعد رحلة طويلة شاقة وصلوا إلى مصر ودخلوا على عزيزها . قال تعالى: ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾

وهكذا كشف يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته عن حقيقة نفسه وقد فهم من حالهم قبل مقالهم كلّ شيء . وكان منهم الاعتراف الجماعيّ بالخطأ في حقه . وهنا يترفع عليه الصلاة والسلام عن العتاب مجرّداً فضلاً عن العقاب .

وإن هذه المعاملة منه صلى الله عليه وسلم لإخوته خير دليل على أنّ ما قام به الإخوة تجاهه كان نزوة طارئة بإغراء من الشيطان الرجيم .

وإن مَعدن هؤلاء الإخوة النقيّ هو الذي جعلهم يعودون إلى الخطّ المستقيم الذي يسير فيه آل يعقوب . وكان العقاب النفسيّ الذي اختاره يوسف لهم وأوقعه عليهم والذي اكتفى به مع إكرامه لهم في كلّ مرّة يأتون إليه خير دليلٍ على أننا إزاء نوعٍ متميزٍ من عباد الله الصالحين الذين استزلهم الشيطان عليه لعنة الله .

انتقال يعقوب وآله من الشام الى مصر :

وإذا كان يوسف عليه السلام الذي أذِن له بالكشف عن حقيقة نفسه بارّاً بإخوته في هذه الصّورة الجميلة ، فمن باب أولى أن يكون بارّاً بأبيه . لذلك بمجرد أن انتهى من الكلام الضروريّ مع إخوته التفت إلى أبيه قال تعالى :

﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

وهنا نجد أنفسنا أمام نبيّين من أنبياء الله تعالى يتفاهمان بلغة خاصّة بهما . إنّ يوسف عليه السلام يعلم بوحيٍ من الله تعالى بحقيقة وضع والده . وإن يعقوب عليه السلام من الوقت الذي تحرّكت فيه العير وفيها قميص يوسف يجد ريح ابنه الحبيب . وبمجرّد إلقاء البشيرِ القميص على وجه يعقوب يرتدّ بصيراً .

إننا بصدد معجزات لنبيّ الله يعقوب وابنه يوسف . حتّى إذا جاء آل يعقوب خرج يوسف لاستقبال أبويه بصفة خاصة ثم طلب إليهم جميعاً أن يدخلوا المدينة ، ورفع أبويه على العرش ، وخرّوا ليوسف دليل التّحيّة والتعظيم سُجّداً ، تأويلاً لرؤيا يوسف عليه السلام التي صادفناها أوّل السورة . وفي المشهد الأخير ينفرد يوسف عليه السّلام بالحديث الدّال على خلقه العظيم وشكره للمنعم وتواضعه الجمّ . قال تعالى :

﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إنيّ لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنّا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ، ربّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾.

تعقيب على القصة :

ويأتي تعقيباً على قصة يوسف هذه الآية خطاباً لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يزال بمكة ولمّا يهاجرْ إلى المدينة المنورة بعد ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ إنها تشير إلى أنّ كلّ ما تضمنته القصّة ، إنما كان من الأخبار الغيبية ذات القدْر والفائدة. وإنّما انتهت إليه صلىّ الله عليه وسلم عن طريق الوحي ، والوحي فقط في أسمى صوره . وإنا لنتساءل . لماذا تضمنت هذه الآية التعقيبية هذه الجزئية ؟ ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ التي تشير إلى حَدَث واحد بعينه بينما في القصّة أحداثٌ وأحداث وأنباءٌ وأنباء ؟ والجواب على هذا أن هذه الجزئية تشير إلى إجماع الإخوة على إلقاء يوسف في غيابة الجبّ . وقد كان يوسف محور القصّة من أوّلها إلى آخرها ، لأنّ إجماع الإخوة على المكر بيوسف إنما كان تنفيذاً للرأي الثالث الذي أدلى به الأخ الأكبر .

وهذا الرّأي يعتبر حجر الزاوية في قصّة يوسف . ولو قتل يوسف أو طرح أرضاً بعيدة مخوفة فمات ، وهذا نتيجة طبيعية لطرحه أرضاً تلك صفتها ، لما كان هناك العِبَر التي نصّت عليها آية آخر السورة ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب﴾ والتي استفدناها باستمرار من السرد القصصيّ للأحداث . ولا ننسى أنّ الإخوة الذين ألقوا يوسف في غيابة الجب ، كانوا مجمعين على إبقاء هذا الأمر سرّاً . وليس هناك حدث آخر في هذه القصّة بقي سراً حتى رُفع الستار عنه في الوقت المناسب بالضرورة سوى هذا الحدث .

لقد كان طبيعياً جداً أن تأتي في الآية التعقيبية هذه الجزئية ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ التي تدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم إنما عرف كلّ هذه الأمور الغيبية ، وفي مقدّمتها إجماع الإخوة على المكر بيوسف ، الذين لم يكن معهم سوى الله عزّ وجلّ ، عن طريق الوحي . وهذا أدّعى لحمل مشركي مكة بالذات على الإيمان بأنّ الذى يوحي إليه ذلك إنما هو رسول ربّ العالمين .

وإنّ طريقة خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾بقصد حمل الناس على التفكير فالاقتناع فالإيمان بقوله تعالى(١)﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الرّوح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربيّ مبين ﴾ يجعلنا نتذكر الطريقة نفسها في الخطاب للغرض نفسه في مثل قوله تعالى:﴿ وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمرُ ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾(٢) وقوله:

---

١ ـ الشعراء ، ١٩٢ـ١٩٥ . ٢ ـ القصص ، ٤٤ـ٤٦ .

﴿وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتابُ إلا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾(١) وقوله:﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾(٢) وقوله:﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيُّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾(٣) وقوله:﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إنّ العاقبة للمتقين﴾(٤) .

وإذا كنا وقفنا عند الآية التعقيبية على قصّة يوسف ، فلا بد من الوقوف عند الآية الموطّئة للقصّة ، للعلاقة الواضحة بين الآيتين . قال تعالى:﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ .

إن هذه الآية تدلّ على أنّ ما قصّه الله تعالى من أحسن القصص إنما كان بإيحاء القرآن إليه . ولا ننسى التوافق بين الآيتين في طريقة الخطاب (كنتَ) فقد جاء هنا﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ . ثمّ نحن بصدد طريقةٍ قويةٍ في التعبير والدّلالة على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قبل الوحي لا يعلم أيّ شيء عن أحسن القصص الذي أشارت إليه الآية . فعندنا إنْ المخففة من الثقيلة الدّالة على التوكيد ، ولامُ التوكيد مِنْ (لمنَ الغافلين) . وما معنى الغافل عن الشيء في اللغة ؟ هو الذي يجهل تماماً أنّ ذلك الشيء يمكن أن يوجد أصلاً ، فلا ينتظر البتة أن يكون عنده ذرّةٌ من علم(٥) .

---

١ ـ القصص ، ٨٦ .
٢ ـ الشورى ، ٥٢ .
٣ ـ آل عمران ، ٤٤ .
٤ ـ هود ، ٤٩ .
٥ ـ استقى هذا المفهوم من استعمال اللفظ في نصوص مختلفة .

ونضرب مثلا على ذلك بأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي كان هذا وضعها في حادثة الإفك ، وقد أنزل الله تعالى فيما أنزل ﴿ إنّ الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيم﴾(١) وإنّ المعنى في آية التوطئة ، والله أعلم ، أنت يا محمد تشترك في هذه الحال مع سواك ، قومك بخاصّة ، أنت إنّما علمت ابتداء بهذا عن طريق الوحي ، وهُمْ إنّما علموا به ابتداء عن طريقك .

وإنّا في حقيقة الأمر نتبين عَلاقةً واضحة بين آية التوطئة هذه والآيتين الأوليين من السّورة ، السابقتين مباشرة قال تعالى:« الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون » . إن القرآن الكريم كله نزل بلسان عربي مبين كي يعقله العرب أوّلا ، الذين بُعث فيهم النبيُّ العربي ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ثمّ يقرّبوا فهم معانيه للإنسانية بعد ذلك . وقد كان للقصص في القرآن حظٌّ موفور .

فقصّة يوسف مثلا تشمل أكثر السّورة . ومعروف أن سورة يوسف مكيّة وذهب البعض إلى استثناء الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ والقول بأنها مدنية . واستثنى البعض الآيات الثلاث فقط . ولكن الرّاجح أن السّورة مكيّة بتمامها . فقد قال السيوطي مثلا في الإتقان(٢) (أستثني منها ثلاث آيات من أوّلها ، حكاه أبو حيّان ، وهو واهٍ جدّاً لا يلتفت إليه) .

ومعروف أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لقي بعد البعثة بمكة عنتاً شديداً في الثلاثة عشر عاماً التي قضاها يدعو أهل مكة إلى دين الله ، وكان الوحي ينزل عليه تباعاً لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم ؛ وتقوية عزيمته . والتسرية عنه . وقد كان للقصص القرآني أبلغ الأثر في الترويح عنه صلى الله عليه وسلم . قال تعالى﴿ وكلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرُّسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحقّ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾(٣) .

---

١ ـ النـور ، ٢٣ . ٢ ـ الإتقـان ١/١٥ . ٣ ـ هـود ، ١٢٠ .

وإنّ أحسن القصص الذي تضمّنتْه سورة يوسف ، له دوره البالغ في تحقيق هذا الغرض بالنّسبة له صلى الله عليه وسلم . فنحن بصدد نبيّين من أنبياء الله تعالى . يعقوب وابنه يوسف عليهما السّلام . وقد اصطفاهما الله تعالى بابتلائه فصبرا صبراً جميلاً واحتسبا ، فأثابهما الله تعالى في الدّنيا قبل الآخرة .

وإذا كان ما حدث ليعقوب ويوسف عليهما السّلام فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإشارة صريحة إلى أنّ العاقبة للمتقين ، وفي ذلك تطمين له صلى الله عليه وسلم ، الذي كاد يُهْلِكُ نفسه أسفاً على عدم إيمان قومه بالقرآن وبأنه رسول ربّ العالمين فإنّ لتوجيه الحديث إليه ، خاصةً في نهاية السّورة ، الأثر نفسه .

وهكذا يتّضح أنّ تثبيت فؤاد النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الغرض الذي تهدف إليه سورة يوسف بقسميها ، القصصيّ الذي يعتبر يوسف عليه السّلام محوره والتعقيبي الذي يوجّه فيه الحديثُ في مجموعه إلى محمّد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم . ونستطيع أن نقول : إن طريقة التثبيت في القسم الثاني تعتبر تطوّراً طبيعياً لطريقة الأوّل . فإذا كان الأول يفي بالغرض بطريق غير مباشر ، إذ يلمّ شملُ آل يعقوب أخيراً ، ويجمع الله تعالى تكرّماً منه وفضلاً ليوسف عليه السّلام بين النّبوّة والملْك . هذا بالإضافة إلى الكثير من الإشارات التعقيبية في العديد من المواضع إلى أنّ العاقبة للمتقين ، فإن القسم الثاني يفي بالغرض بطريق مباشر .

وهكذا يتّضح لنا التماسك العضْوي بين قسمي السُّورة . وقد سبق أن اتضح ذلك بالنسبة للقسم القصصيّ الذي تمّ فيه أحسنُ ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية ، وثبت أنّ الناحية الفنية وسيلة دائمة للناحية الدينية وأنّه يستحيل أن تُفصلَ عن الأخرى . والآن حان الانتقال إلى القسم الثاني .

القسم التعقيبي

قال تعالى: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكرٌ للعالمين ، وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم السّاعة بغتة وهم لا يشعرون، قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ، وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القُرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتقوا ، أفلا تعقلون . حتى إذا استيأس الرُّسلُ وظنوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنُجّي من نشاء ولا يُردُّ بأسُنا عن القوم المجرمين ، لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كلّ شيءٍ وهدىً ورحمة لقومٍ يؤمنون ﴾ .

إنّ الخطاب في هاتين الآيتين ﴿ وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ، الذي كان حريصاً كلّ الحرْص على إسلام أهل مكة ، وكان يحزن لانصراف أكثرهم عنه حزناً شديداً حتى خاطبه الحقّ تعالى بقوله ﴿ فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾(١) أي فلعلك قاتل نفسك ومهلكها أسفاً منك على عدم إيمان قومك المكين بالقرآن وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المراد بالنّاس أهل مكة (٢) .

ملكيين

وواضح أنّ الآية تشير إلى الإيمان لا إلى الإسلام ، ومعروفٌ أنّ كلّ مؤمن مسلمٌ وليس كل مسلم مؤمناً، فكأنّه صلى الله عليه وسلم لم يكن

---

١ ـ الكهف ، ٦ .

٢ ـ الكشاف ١٥٦/٢

حريصاً على أن يكون أهل مكة وسواهم مسلمين فقط بل مؤمنين . وكأنّ الآية بالإضافة إلى إشارتها ضمناً إلى تفانيه عليه الصلاة والسلام في سبيل الدّعوة فإنّها تنصّ صراحة على أنّ موقف أكثر النّاس المناهض للدّعوة ما قدّره عليهم أحكم الحاكمين ، وقد قال تعالى:﴿ ولو شاء ربّك لجعل النّاس أمة واحدةً ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربّك لأملأن جهنم من الجنّة والنّاس أجمعين ﴾(١) .

والآية التالية ﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلاّ ذكر للعالمين ﴾ مرتبطة بسابقتها تماماً . فإذا كانت الآية الأولى تنصّ على انصراف أكثر النّاس عن الإيمان ، فإن الثانية تشير إلى أنّه ليس هناك أيُّ مبرّرٍ لهذا الانصراف منهم وحتّى الأجر الذي ينبغي أن يُدفع لكلّ عامل لقاء تعبه ، ولا يُلام طالبه لأنّه حقّ له ، فإنّك لا تطلب شيئاً منه فضلاً عمّا سواه من جاهٍ وسلطان . وإن كانت الجزئية الأولى من هذه الآية نافية لطلب أي مقابل فإن الجزئية الثانية ﴿ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين ﴾ معمّقة للمعنى السّابق : مثبتة أن هذا القرآن ليس سوى عظة من الله تعالى للعالَمين عامّة ، وليس هناك طلبٌ لمقابل ، لا من أهل مكة ولا من سواهم .

إنّك يا محمد لتحرص على إيمانهم بالذّكر الذي أوحى إليك . وكثيرٌ هي الآيات التي يبصرونها في السّماء ، ويمرّون عليها في الأرض ، وكلها يشهد بصحة ما تدعوهم إليه ، ومع ذلك فهم لا يتأمّلون ولا يتدبّرون ﴿ وكأيّن من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾. ولو فُرض أن البعض أقرّ بالله وبأنه خالقه وخالق السماوات والأرض ، فإنّ الكثير من هذا البعض مشرك بعبادة الله تعالى أرباباً متفرّقين ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون ﴾ . وهنا يأتي الاستفهام الإنكاريّ في قوله تعالى : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة

---

١ ـ هود ، ١١٨ ، ١١٩ .

وهم لا يشعرون ﴾ كيف أباح هؤلاء لأنفسهم أن يشركوا الأرباب المتفرّقة التي لا تنتصر لأنفسها فضلا عن سواها ، بعبادة الله الواحد القهّار . أفأمِنَ هؤلاء أن تحُلَّ بهم نقمةٌ من الله تغمرهم ؟ أفأمنوا أن تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ لا يستطيع هؤلاء ولا سواهم أن يأمنوا هذا ولا ذاك .

إذَنْ كيف جرؤُوا على القيام بما هم قائمون به فعلا ؟ وإذا لم يكن المبرّر هذا ولا ذاك فهلاّ فطنوا للعَماية التي هم فيها سادرون ؟ ﴿ فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾(١) وهلاّ تبيّنوا السبيل الخاطئة التي يسيرون فيها ؟ وهلاّ تحوّلوا سريعاً إلى السبيل الصحيحة التي يسير فيها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والتي يدعو الناس إليها والتي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ، على بصيرة أنا ومن اتّبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

« واضحٌ أنّ الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه تبيين لسبيله . عليه الصلاة والسلام ، وقِوامها دعوته إلى الله تعالى مع حجّة واضحة »

هو ومن اتبعه وسار على هديه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ويلاحظ أن حقيقة الاتّباع هذه سبق أن أعلنها يوسف عليه السلام في قوله تعالى على لسانه خطاباً للفتيين في السجن:﴿ واتّبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

وهذه الجزئية من الآية ﴿ وسبحان الله ﴾ مرتبطة بالآيتين السابقتين اللتين تتحدّثان عن المشركين ، فهنا تنزيهٌ لله تعالى عن أن يكون له شريك وتتلوها هذه الجزئية ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ التي فيها تصريح بما نفته الجزئية السابقة بطريق غير مباشر .

---

١ ـ الحج : ٤٦ .

وهذه الآية بصفة عامّة تبيّن السبيل الثانية وصفة أتباعها بينما الآيتان السابقتان تبينان السبيل الأولى وصفة أتباعها . إنّ هناك سبيلين مختلفين وصفتين لأتباعهما متباينتين .

والآية التالية تتحدث عن الرُّسل وما صادفه أقوامهم بقسميهم : الكافرين الذين اتّبعوا أهواءهم ، والمتقين الذين حكّموا عقولهم . قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتقوا ، أفلا تعقلون﴾ ؟ فالآية تشير إلى الرُّسل الكثيرين الذين بعثهم الله تعالى قبل محمد بن عبد الله ، وكانوا كلُّهم رجالا ، لموافقة طبيعة الرّجل لصعاب الأمور ، وقدرته على العمل الدّائب . ثم إن كلّ رسول إنما كان يصطفى من بين قوم على درجةٍ معيّنة من الفهم ضماناً لنجاح الدّعوة . وفيما يتصل بالعرب أثناء البعثة المحمديّة فإنّ بالإمكان تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : سكّان القُرى ، كمكة والمدينة والطائف . وقد كان هؤلاء أدنى إلى الحضر وأقرب احتمالا لتقبل الدّعوة وقد نجحت الدعوة أوّل الأمر في مكة نجاحاً مّا . ونجحت نجاحاً تامّاً في المدينة المنوّرة .

القسم الثاني : الأعراب المغرقون في البداوة،وهؤلاء أبطأ الناس فهماً وأسرعهم تقلّباً . وقد لقي منهم الإسلامُ في فجره عَنَتاً شديداً ، وهاجم القرآن الكريم بعضهم .

القسم الثالث : أناسٌ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . قد أخذوا من الحضارة والبداوة بنصيب،وقد كان طبيعياً ، ضماناً لنجاح الدّعوة ، أن يكون الرّسول من بين سكان القرى الذين لهم ذوق حضاري من نوع معين . وهكذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه الجملة في الآية ﴿نوحي إليهم﴾ فيها تبيين الوسيلة التي يتمّ بها الاتصال بالرُّسل ، ألا وهي الوحي . وقد سبقت الإشارة إليه في أول السورة

﴿ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

وهذه الجزئية ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ تتعلق بأصحاب الطريق الخاطئة من مشركي أهل مكة . ففيها حث لهم ، وهم التجّار الذين يقومون برحلة الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام ، بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم الذين كذبوا رسلهم.وقد قال تعالى مثلاً في الصافات (١):﴿وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين ، وبالليل ، أفلا تعقلون ﴾.

وهذه الجزئية ﴿ ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتّقوا ﴾ تتعلق بأصحاب السبيل الصحيحة الذين اتّبعوا الرّسول النبيّ الأميّ ، محمد بن عبد الله . وهذه الجزئية ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فيها حثٌّ لأصحاب السّبيل الخاطئة على استعمال العقل وطرح الهوى . وقد جاءت في أوّل السّورة إشارة إلى العقل والحث على استعماله قال تعالى ﴿ إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنّ بلالاً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يؤذّنه لصلاة الصبح فوجده يبكي فقال يا رسول الله ما يبكيك ؟ قال : وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ هذه الليلة ﴿ إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾(٢) ثم قال : ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر (٣) .

ومن نعم الله علينا نحن المسلمين ، أنّ العقل الصحيح ، مهما كان عميقاً غوره ، فإنّه ينتهي دائماً إلى إيمان عميق ، مساوٍ في عمق الغور لما انتهى إليه الفكر النيّر . وكثيرةٌ هي الآيات التي تدعو للتّدبّر واستعمال الفكر وتحكيم العقل بل إنّ العقل الصحيح كلما سبر عُمقاً بدا له عمقٌ آخر . فيتخذ من

---

١ ـ الايمان ، ١٣٧ـ١٣٨ .
٢ ـ ال عمران ، ١٩٠ .
٣ ـ الإتقان ٢١/١ .

ذلك دليلاً على أنّ وراء كلّ عمق أعماقا ، وينتهي إلى الإيمان المطلق بما سبق أن قدمه له الدين ابتداءً . - فهناك توافقٌ تام بين الفكر الصحيح والدّين . ويوقن العقل الذي هذه صفته بأنّه أبداً تابعٌ وفيّ للدّين .

وإذا كان من بين ما تعرّضت له هذه الآية اختيار الرّسل والإيحاء إليهم فإنّ في حديث الآية التالية عن الرُّسل تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعداً صريحاً منه تعالى بنصره . قال تعالى ﴿ حتى إذا استيأس الرُّسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين ﴾.

والمعنى والله أعلم – حتى إذا صار حال الرُّسل إلى يأس ، وظنّوا أنّ أنفسهم التي منّتهم بالنصر السريع قد كُذِبَتْهُمْ لانصراف قومهم عنهم ، وعدم إصغائهم إليهم ، إذا بفرج الله يجيء دون مقدّمات، ونصره يحلّ دفعة واحدة . وهنا ينقسم أقوام الرسل فريقين ، تبعاً لموقفهم من الدّعوة . إما بالتصديق ، وتعنيهم هذه الجزئية ﴿ فنجي من نشاء ﴾ أو التكذيب ، وتخصهم هذه الجزئية ﴿ ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ . ولا يخفى أنّ الجزئية الخاصة بالمصدقين ﴿ فنجي من نشاء ﴾ تدلّ على شيء كبير من رحمة المولى بهذه الفئة وتفضّله عليهم ، بينما تدلُّ الجزئية الخاصة بالمكذبين على البأس الشديد الذي ليس له حدّ ولا مردّ . وتأمّل لفظة « القوم » التي استخدمت معرفة بحق هؤلاء المكذبين الذي يعرفهم بسيماهم بأسُ الله جيّدا . وتأمّل الصفة بـــ « المجرمين » التي خلعها الحق تعالى عليهم . إنّهم مجرمون بحق أنفسهم وبحق سواهم أيضاً ، إذ ضللوهم وصرفوهم عن طريق الهدى .

وتأتي في النهاية الآية التي تلقي بضوئها على كلّ ما اشتملت عليه سورة يوسف قال تعالى ﴿ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ إن الضمير من « قصصهم » يعود على كلّ الذين كانت لهم أدوار في هذه السُّورة ، وبخاصة أنبياء الله ورسله . ففي القصص الحسن الذي

قصّه الله تعالى على رسوله عن طريق الوحي في هذه السورة – وفي سواها أيضاً – بلسان عربي مبين ، عظة وعبرةٌ لكل ذي لبّ يتأمّل ويتدبّر وينتفع . وهذه الجزئية ﴿ ما كان حديثاً يُفترى ﴾ تثبت أن هذا الحديث الموحى به إنما يقص حقائق ثابتة قد حدثت فعلاً . وهذه الجزئيات ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ تشير إلى أن ما جاء به القرآن الكريم مصدق لما جاءت به الكتب السماوية السّابقة قبل أن تمتد إليها أيدي العابثين ، وتفصيلٌ لكلّ شيء يُحتاج إليه في الدّين ، فالقرآن الكريم هو المصدر الأول والقانون الذي تستند إليه السّنة والإجماع والقياس ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

إن القرآن الكريم هدى يهتدي به المؤمنون ، ورحمة تحل بهم بسبب العمل بمقتضاه .

ويلاحظ أن لفظة « قوم » جاءت منكّرة بحق المؤمنين ، بينما جاءت اللفظة معرّفة بحق المجرمين . لقد جاءت معرّفة في قوله تعالى: ﴿ ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ للدّلالة على قوم معيّنين رفضوا اتباع هذا النبي أو ذاك فحلت بهم نقمة الكبير المتعال ، بينما جاءت اللفظة نفسها منكرة في قوله تعالى: ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ للدلالة على أن الهدى والرحمة شاملان لكل قوم في كل زمان ومكان ، مؤمنين بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً .

وهكذا يتضح لنا التماسكُ العضوي بين قسمي السورة والوحـــدة الموضوعية التي تنظمها . وقد تبيّن لنا ، بالإضافة إلى التماسك العضوي في كل من القسمين: القصصي والتعقيبي ، أن هناك هدفاً رئيسياً سعت هذه السورة المكية إلى تحقيقه ، هذا الهدف هو تسلية النّبيّ صلى الله عليه وسلم الذي لقي آنذاك من المكيين كل عَنَت واضطهاد . فكان بحاجة إلى تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم . وقد حقق القسم الأول القصصي من السورة

ذلك بطريق غير مباشر في صورة النّهايات السعيدة لحلّ شخصيات القصة ، وفي صورة الإشارات المتعددة إلى أن العاقبة للمتقين ، إمّا على لسان الشخصية كقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ وإمّا تعقيباً على حوادث معينة ، كقوله تعالى بعد أن مكّن ليوسف عليه السلام في أرض مصر وتعيينه في منصب عزيزها ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾. بينما حقّق القسم الثاني تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بطريق مباشر يعتبر تطوّراً طبيعياً للطريق الأول وضرورياً أيضاً لأن الهدف الأكبر إسعاد البشر في الدارين .

فإذا كان الطريق الأوّل حقق غرضه في نغم موسيقي قصصيّ مؤثر في الوجدان محرّكٍ للعقل فإن الطريق الثاني الذي يعتبر تطوّراً طبيعياً للأوّل ، والذي كان نصيب العقل فيه موفوراً حقق غرضه في نغم موسيقي آخر ، متمش مع هذا التطور ، ترتاح له النفس المدركة لضرورة هذا التنويع وقيمته .

وإن أهمّ ما نودّ توكيده هو أن القرآن الكريم جمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدّينية ، وأنه يستحيل الفصل بين هاتين النّاحيتين .

وإذا كنا فيما مضى تبيّنّا الوحدة الموضوعية في قصة يوسف من زاوية تطوّر الأحداث الطبيعيّ ، وفي السورة ككلّ من زاوية وحدة الهدف . فإنّ لتطوّر الشخصيات الطبيعيّ ، سلباً أو إيجاباً ، وبخاصة في القسم القصصي ، دورَه الأكيد في تحقيق هذه الوحدة الموضوعية . وهذا ما سنعالجه بإذنه تعالى في الصفحات التالية. فإلى الفصل الثاني مع الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوَحدة الموضوعيّة .

الفصل الثاني

الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوحدة الموضوعية

الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوحدة الموضوعية

الشخصيات في قصة يوسف متنوعة وتختلف مدة ظهورها حسب الأدوار التي تقوم بها . فهناك الشخصيات التي تستمر أدوارها من بداية القصة حتى نهايتها ، كيوسف عليه السلام ، محور القصة ، ويعقوب عليه السلام والإخوة ، وإن غاب يعقوب والإخوة في كثير من المشاهد .

وهناك بعض الشخصيات ذات الأدوار الفعالة في القصة ، والتي تلي مباشرة في الأهمية الشخصيات الرئيسية ، وتختلف مدة ظهور هذه الشخصيات ومراته كالوارد والسيارة ، والعزيز وامرأته ، والشاهد ، ونسوة المدينة ، والفتيين ، والملك .

وهناك بعض الشخصيات التي لها أدوار خاطفة ، أو التي اكتفى بمجرد الإشارة إليها . كالذين بدا لهم إدخال يوسف السجن حتى تهدأ الأمور . قال تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾. وكالملأ في قوله تعالى على لسان الملك ﴿ يا أيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ . والرسول في قوله تعالى: ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن . إن ربي بكيدهن عليم ﴾ . والفتيان في قوله تعالى: ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ . والمؤذن في قوله تعالى : ﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ ← لا يترك فراغ

والفتيان أيضاً الذين يعود إليهم ضمير قالوا في قوله تعالى: ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾. وأهل القرية والمسافرين في قوله تعالى على لسان كبير الإخوة: ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ . وأهل يعقوب الذين يعود إليهم الضمير من قوله تعالى: ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾.

وكي نتبين أدوار هذه الشخصيات المهمة في دفع أحداث القصة إلى

الأمام ، سنتناولها بإذنه تعالى بالدّراسة . بادئين بشخصيات الفئة الثانية ، بعدها نعود إلى دراسة الشخصيات الرئيسية التي سايرت القصة حتى نهايتها .

أوّلا : شخصيات الفئة الثانية في قصة يوسف عليه السلام

السّيّارة وواردهم :

قال تعالى : ﴿وجاءت سيارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزّاهدين﴾ .

والذي يفهم من قوله تعالى:﴿وأسرّوه بضاعة﴾ وقوله:﴿وشروه بثمن بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أن السيارة كانوا فئة من التّجّار ، اتخذت الغلام يوسف بضاعة تتاجر بها ، ولكنها لم تغرم فيه شيئاً ، وخشيت السؤال : من أين لها بهذا الغلام ؟ فهان عليها بيعه بثمن بخس . دراهم وليست دنانير ، قليلة لا كثيرة ، فهي تُعدّ ولو كانت كثيرة لَوُزِنَتْ بل كانوا حريصين على التّخلص منه زهداً فيه .

وقد شاءت إرادة الله أن تكون هذه الفئة من التجّار الحريصين على الكسب ، وليس من سواهم . لذا تمت عملية بيعه بكل هذه البساطة . وكذلك شاءت إرادته تعالى أن يشتريه عزيز مصر بالذات ، وليس سواه . وقد كان بالإمكان ، لولا إرادة الله ، أن يشتريه كلُّ واحد ، وهو الغلام الزهيد الثّمن .

ويلاحظ أنّ السيارة أرسلوا وارداً واحداً منهم ليُحضر لهم الماء. ويُفهمُ من كون الوارد واحداً أنّ عدد السيارة محدود وأنهم كانوا قليلي العدد . وإلا لاضطرّوا لإرسال أكثر من وارد لإحضار الماء .

وقد جاء في الآية عن الوارد:﴿فأدلى دلوه قال يا بُشرى هذا غلام﴾ والذي يُفهمُ ، والله أعلم ، أن هذا الوارد حينما أدلى دلوه كانت عينه

معه ، حتى يصطدم الدلو بالماء ، فبهذا جرت العادة ، خاصة إذا كان الوارد يرد بئراً طال عهده بها وانقطاعه عنها . وهنا تقع عيناه على غلام فوق صخرة بجوار الماء وكانت غيابة الجب(١) تستر ذلك الغلام .

وَهُنا يتفجر لدهشة الفرح قائلا: ﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾ والمعنى ، والله أعلم ما أشد فرحتي ! لقد أتيت للماء وسأعود به وبهذا الغلام الوسيم أيضاً .

وقد وجدته في مكان لا يتوقع وجود مثله فيه . ألست تاجراً كأيّ فرد من رفاقي ؟ ألم نخرج بقصد التجارة ؟ أليس هذا الغلام الذي لا يبدو أنّ هناك سائلا يسأل عنه ، لوجوده في هذا المكان الغريب ، يمكن أن يدرّ علينا ربحاً مّا ؟ إنني حينما أخرجه وأعود به إلى رفاقي سيفرحون فرحي .

أليس بيعُ مثل هذا الغلام جائزاً بل شائعاً في عصرنا ؟ إنّا حينما نبيعه فسيكون كلّ ثمنه ربحاً لأنا لم ندفع فيه شيئاً .

وواضح أنّ الآية الكريمة لا تتعرّض لعملية إخراج يوسف من الجبّ ، فهذا شيءٌ مفهوم . لأنّ وصوله لدى السيارة يعني ذلك ضمناً . ويلاحظ أنّ هذا الوارد تبيّنَ منذ أن رأى يوسف للوهلة الأولى أنّه غلام . فهو رجل صحيح البصر ، وكان هناك نورٌ مسعفٌ له على تبيُّن الغلام في غيابة الجب الذي لم يكن بالضرورة عميقاً . ونستطيع أن نستنتج أنّ الوارد ، وهو وحيدٌ آنذاك ، لم يجد شيئاً من مشقة في إخراج يوسف من الجبّ .

وما معنى « أسروه » من قوله تعالى: ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ معناه ، والله أعلم ، أنّ هذه الفئة من التّجّار اتّفقت فيما بينها على إخفاء الغلام حتّى يصلوا إلى السوق التي يبيعونه فيها . وكون يوسف يمكن إخفاؤه بهذه البساطة ، ذلك تأكيد لكونه ما زال صغير السّنّ والحجم معاً .

---

١ ـ الغيابة في الجب : شبه لحف (بالكسر وهو أصل الجبل) أو طاق في البئر فويق الماء يغيب ما فيه عن العيون . انظر البحر المحيط ٥/٢٩٤ .

ولأمر يريده الله تعالى لم يدر بخلد واحد منهم مجرّدُ التفكير في أن هذا الغلام له أهل ، وفي الإمكان إرجاعه إليهم . وقد يفهم من جملة ﴿وأسروه﴾ ما سبق أن ألمحنا إليه من أنّ عدد هؤلاء التجار محدود . فإن عدد الأفراد حينما يكون قليلا ؛ فذلك أدعى عادةً لأن يتّفقوا بالإجماع على أمر مّا .

وقد اتفقت هذه الفئة فيما بينها على إخفاء يوسف خوف السؤال . من أين لكم هذا ؟ واعتباره بضاعة تباع في أوّل سوق تصادفهم . وبما أن أول سوق تصادفهم ستكون بالضرورة في مصر ؛ لذلك كان هناك إجماعٌ على بيعه بل على التخلص منه هناك .

عزيز مصر وامرأته ونسوة المدينة :

بسبب تفاعل هذه المجموعة من الشخصيات ، بالدرجة الأولى حول قضية معينة ، جمعنا بينها في الدّراسة . قال تعالى ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً ، وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾.

يبدو لنا العزيز من هذه الآية رجلاً نبيلاً ، طيب القلب رحيما ، بعيد النظر ألمعياً . إنه وهو الرجل الثريّ ، ذو الخدم والحشم ، والعبيد والإماء ، يطلب من امرأته ، وليس من أيّ شخص سواها ، أن تكرم مثوى الغلام ، وأن تتعهده بالعناية والرّعاية .

فقد تبين في الغلام يوسف ، بفراسته وألمعيّته ، أنه من معدن متميز لهذا خصّه دون سواه ، بهذا الاهتمام الفائق . ولأنه رجلٌ مشغولٌ بمصالح قومه ، منصرف إلى أعماله ، أوصى بالغلام خير من كان يعتقد أنه سيقوم بهذه المهمة وَفْقَ رغبته .

وهو رجلٌ متّزن مجرّب ، لذا هو يقدم فعل الرّجاء « عسى » بين يدي

قوله:﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ إنه يرجو أن يكون واقع هذا الغلام مستقبلاً موافقاً لِفراسته فيه .

فإذا تحقق ما ظنّ فيه حصل منه النفع الذي يؤمل من أمثاله . بل ربما نزل في القرب والمحبة منزلة الولد .

وواضح أن العزيز الرّجل المفكّر ، منطقيّ في رجائه . فهو يقدّم النفع بين يدي اتخاذهما يوسف ولداً في قوله﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ الرّجاء الثاني مبنيٌّ على الأوّل . ولا يتحقق الثاني إلا بعد تحقّق الأول .

والعزيز أيضاً منطقيٌّ في رجاءيه المعقولين . فكثيرٌ هم الذين كانوا في مثل وضع الغلام يوسف ونزّلوا إحدى هاتين المنزلتين .

ثم إنّه إنما قال في خطابه لزوجه﴿أونتخذه ولداً﴾ منطلقاً من حقيقة كون يوسف بعد غلاماً صغيراً ، قد ابتعد ما بينه وبين كونه في المستقبل رجلاً ، وهذه الفترة ، كفيلة في اعتقاد العزيز ، أن تنزّل يوسفَ من زوجه منزلة الولد الفعليّ وأن تنزّل زوجه من يوسف منزلة الأمّ التي افتقد . وكان يعتقد أنهما سينجحان في تحقيق الرّجاءين معاً ، أو أوّلهما على الأقل ، إذا استطاعت زوجُه أن تغمر الغلام بإحسانها ، وتشمله بعطفها ، خاصة وأن يوسف في السّنّ التي يعتبر فيها صفحة بيضاء نقيّة وأداة طيّعة .

وقد يكون الدافع للعزيز على ربط الرجاءين أو أحدهما بيوسف عليه السلام ، أنه والله أعلم ، لم تكن له ذرّيّة ، وأنه كان حريصاً عليها ، ولعله قديئس من حصوله عليها من صُلبه ، ففكّر في طريقة طبيعية أخرى ، هي طريقة التّبنّي . ولعل زوجه كانت تشاركه هذا الرأي ، قبل الحصول على الغلام يوسف . وها هو ذا الآن يذكّر زوجه ، وقد حضر الغلام ، بالنّفع المأمول ، أو الولد المتوقّع ، منبهاً لها إلى الطريق التي ينبغي أن تسلكها بغية الوصول إلى إحدى الغايتين أو إليهما معاً .

هذه الطريقة هي أن تكرم مثواه﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته

أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ والمثوى : مكان الثوي والمبيت والإقامة ، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكنّ التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته ، وهي مبالغة في الإكرام » (١) .

وهل نفّذت الزوجة طلب زوجها بإكرام مثوى الغلام ؟

وهل أكرمته للغاية التي أشار إليها العزيز في رجاءيه ؟ قال تعالى: ﴿ولما بلغ أشدّه آتيناه حُكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ، وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيْت لك ، قال معاذ الله إنه ربيّ أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون﴾ .

إن الحق جل وعلا قد شهد ليوسف عليه السلام بأنه كان من المحسنين إلى أنفسهم وإلى سواه باجتناب النواهي وفعل الأوامر . وفي أي سنٍّ كانت هذه حال يوسف ؟ في الفترة من السن الدقيقة الحرجة . حينما بلغ مبلغ الرجال ، حينما بلغ أشده . وجزاءً له على إحسانه آتاه الله حكماً وعلماً .

وفي هذه الفترة من السن الدقيقة الحرجة ، وهو غير المتزوّج ، تقف منه امرأة العزيز موقفها المعروف .

والمراودة من رادّ يرود إذا جاء وذهب . والمراد أنها كانت تطلب منه ما تريد بكلّ الوسائل الممكنة .

وتأمل الأدب القرآني في الإشارة إلى امرأة العزيز ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ بل إن لفظة العزيز لا تجيء للمرة الأولى إلا على على لسان نسوة المدينة ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ إنه ليستفاد من هذا الأدب القرآني في الإشارة إلىامرأة العزيز أنها هي المسؤولة عن كل ما حدث ، لأن الفتى في بيتها هي ، ولم يكن له

---

١ ـ في ظلال القرآن ٩٨/١٢ .

بيت أساساً ، ولأنها ذات السلطة في ذلك البيت ، ولأن القضية تتعلّق بها بالذات . وحينما يكون الفتى معها في بيتها ، فذلك أدعى لأن تكون مراودتها له مستمرة وملاحقتها دائمة . ولنتصور المشقة التي كان يكابدها يوسف عليه السلام في القبض على دينه . وإنّ المشقة في صون دينه ستكون القمة في الشدّة والعنف ، حينما نتمثل المظهر الذي يمكن أن تكون فيه من كان زوجها في مثل منصب عزيز مصر ، خاصة حينما يكون لها هدف مقصود .

وهذه المراودة من امرأة العزيز لم تلق من يوسف عليه السلام إلا فراراً ، ولم يزدها فراره منها إلا عناداً واستكباراً . وبما أنه كان في بيتها لهذا كانت قادرة على القيام بما أشارت إليه الجزئية التالية من القرآن ﴿وغلقت الأبواب وقالت هيت لك﴾ لقد كان في اعتقادها ، أنه يستطيع الفرار منها لأنها لم تكن قد وضعت حواجز تمنعه . والآن مجاراة منها لرغبتها النامية ، تقوم بإغلاق كل الأبواب — التي يمكن أن يفرّ منها الفتى الذي هو في بيتها — إغلاقاً محكماً . وتأمّل صيغة الفعل « غلّق » التي تدل على إحكام تغليق كل الأبواب ، وهو بدوره يدلّ على التّعميم .

وإذا كان الطلب من قبل يتمّ بالإشارة والتلميح ، فإنه الآن ، يتم صراحة وبوضوح . وكلّ الملابسات تقول به وهنا يأتي على لسان يوسف قوله تعالى: ﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنّه لا يفلحُ الظالمون﴾ .

وتأمّل هذه الجزئية عن امرأة العزيز ﴿ولقد همت به﴾ من قوله تعالى: ﴿ولقد همت به ، وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين﴾ . فنحن إزاء اللام التي تفيد التوكيد ، وقد التي تفيد التحقيق ، في الدلالة على تصميم هذه المرأة على ما همّت به .

ولم يكن ليتخلى أحكم الحاكمين عن عبده المخلص المبتلى يوسف عليه

السلام الذي انطلق في أقصى سرعة له ممكنة حيث الباب ، محاولا الفرار بدينه . قال تعالى﴿ واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبُر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم ﴾ .

لقد تمت عملية سباق عنيف ، هو يجري فراراً من الفحشاء ، وهي تجري فراراً إليها . إنها تحاول جاهدة مجاراة سرعته ، بل اللحاق به ، بل تخطيه . وقد أمكن لها فقط الإمساك بما وصلت إليه يدها من قميصه . وقد كان إمساكها للقميص ، وجذبها له ، من العنف ، لإرغام الفتى على الوقوف أو الإمساك به نفسه — على أقل تقدير — بالدرجة التي قدّت ذلك القميص من خلفه . وواضح أنها لم تتمكن من تخطيه ، بل إنها لم يكن بإمكانها أن تلحق بقميصه لولا امتداد يدها، لقد كانت السرعتان متساويتين .

وقد كسب يوسف عليه السلام بفضل المبادرة للفرار مسافة بسيطة بينهما أمكن للمرأة أن تعوضها بيدها الممتدة . وربما كان للقميص ، الذي نظن أنه لم يكن بالضرورة ملاصقاً لجسم يوسف ، دور مسعف لامرأة العزيز في الإمساك به ، إذ أسعف يدها الممتدة . وما معنى كون سرعة المراة والفتى متساويتين ؟ معنى ذلك أن الرغبتين في اللحاق و الفرار متساويتان . وما معنى أن يقدّ القميص من دبر ؟ معناه أن يوسف بريء وهي المتّهمة . وما معنى أن يكون يوسف عليه السلام مرتدياً قميصه ؟ معناه أنه عليه السلام في كامل ملابسه ، ويأبى الله إلا أن يكون عبده المخلص في الوضع اللائق به . وقد أتى الباب مفرداً في قوله تعالى:﴿ واستبقا الباب ﴾ بينما جاء في صيغة الجمع من قبل في قوله:﴿ وغلقت الأبواب ﴾ والمراد بالباب في صيغة المفرد الباب الرئيسي الذي يفضي به حيث الآخرون ، بدليل أنهما ألفيا سيدها لدى ذلك الباب .

وإن يوسف عليه السلام الذي يعرف ذلك البيت بدقة ، حينما يقصد

ذلك الباب ، وتلك صفته ، فذلك من الأدلة الكثيرة الشاهدة على رغبته الأكيدة في الفرار بدينه . وإن استعمال ضمير التثنية وليس المفرد في قوله تعالى:﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ دليلٌ على تصميم امرأة العزيز على اللّحاق بيوسف . ولم يثنها عن عزيمتها اتجاه يوسف صوب الباب ، الذي تعرف أنه يشكل الحدود الفاصلة بين ما هو خاصٌ بها ، وما هو شركة بينها وبين سواها . وبما أن امرأة العزيز قد أحكمت إغلاق كل الأبواب من الدّاخل . فمن غير المعقول أن تترك الباب المهمّ ، الذي تلك صفته ، دون إحكام إغلاق . وعليه فلا يمكن لأحد في الخارج أن يدخل أو أن يرى ما دام الباب مغلقاً .

وإذن فمتى يُمكن ليوسف عليه السلام والمرأة أن يريا العزيز الذي كان لدى الباب ؟ حينما يكون الباب مفتوحاً . ومن الذي فتح الباب ؟ يوسف عليه السلام وكأنه في الفترة الخاطفة التي أمكن له فيها أن يفتح الباب كانت قد لحقت به وهنا أمكن لهما أن يريا العزيز معاً وقد كان وجود الزوج لدى الباب مفاجئاً للمرأة بالذّات . لأنه يُظنّ أنها لم تكن لتجرؤ على ما قامت به لو لم تكن مطمئنة إلى أن ذلك الوقت غيرُ وقت عودة العزيز .

وهكذا صرف الله تعالى السُّوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام . وقد أصيبت المرأة بخيبة أمل لا حد لها في اعتقادها ، وأدركت أن عزّتها الآثمة قد أهانها فتاها ، وذهبت مخططاتها سُدى . وألفت نفسها فجأة أمام زوجها في وضع لا تُحسد عليه . ولقد كانت رغبتها جامحة ، وقد انكسرت فجأة هول المفاجأة ، وتولد عنها وعن الشعور بالكبرياء الآثم المجروح ، حقدٌ بعيد المدى ، عبّرت عنه في صيغة الاتهام القوي ليوسف عليه السلام ، مصحوباً بنوعين من العقاب . وقبل الوقوف عند الاتهام والعقاب نحن نتساءل : لو لم تكن امرأة العزيز في كامل ملابسها هل تستطيع مجرد الوقوف بحضرة الفتى أمام زوجها فضلا عن توجيه الاتهام إليه واقتراح إنزال أحد

العقابين ؟ بطبيعة الحال هي كانت في كامل ملابسها ، وهذا الذي جعلها تتّهم يوسف : وذلك في اعتقادها تبرئة لها خاصة ولأن ملابسها سليمة بعكس قميص يوسف ، الذي يدلُّ على شيء ما ، وقد أرادت أن يكون هذا الشيء تهمة تلبسها الفتى ، يستحقّ عليها السّجن أو العذاب الأليم .

وغفلت عن كون القميص إنّما قدّ من دُبُر وليس من قُبُل . قال تعالى على لسانها مخاطبة زوجها: ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسْجَنَ أو عذاب أليم ﴾ .

والذي يلاحظ على كلام الزوجة هنا أنها ركّزت بشدة على العقاب ، وكأنها قد ضمنت لصوق التّهمة بالفتى انطلاقاً من غرورها بمركزها الاجتماعي العالي ، ونظرتها المعيّنة للفتى الذي كان غلاماً حينما اشتراه زوجها ، وعدم قدرتها على التصوّر بأنه يمكن أن يوجد فتى هذا وضعه يهين كرامتها ويرفض لها طلباً .

لكل ذلك هي ركّزت على العقاب . أما التُّهمة التي مرّت بها عرضاً فقد كانت مطمئنة إلى أنها لا صقة بالفتى .

ولا ننسى أن المرأة كانت واثقة من أنها توجّه إليه هذه التهمة كذباً ، ولكنّ التهمة هي الشيء الطبيعي الذي يمكن أن تقوم به ، لما ينبغي عليه من تحقيق ما تحرص عليه من أخذ ثأر لكرامتها التي أهدرت ، وعزّتها الآثمة التي أهينت ، إن أصرّ الفتى على رفضه مستقبلاً . ثم إنّ في توجيه التهمة إلى الفتى صرفاً للتهمة عنها . وهذا ما يحرص عليه من كان نعسان الضمير مثلها .

ويلاحظ أنها لم تذكر اسم يوسف صراحة أو حتى صفته ، فلم تقل مثلا ما جزاء يوسف أو الفتى ، إنما جعلت الكلام عاماً في صورة قاعدة يدخل تحتها كلُّ من كان ذلك تصرُّفه . وكأن التصرف الذي نسبته إليه قد لصق به ، والمسألة فقط ، بحاجة إلى تطبيق قاعدة ثابتة موافقة لفعل .

فليس مهماً كما يبدو من قولها أن يكون الفاعل يوسف أو سواه ، إنما المهمُّ الفعل الثابت الذي يستحقّ نوعاً من العقاب مساوياً له .

ونحن نحسُّ بأن في حديث المرأة التفصيليّ عن العقاب شيئاً كبيراً من الشعور بالوزن الذاتيّ . ولا نشك أن ليقينها بأن زوجها عزيز مصر ، دوراً في هذا الشعور بالوزن الذاتيّ . إنّ عزيز مصر ، وتبدو منزلته العالية من الإشارة إليه بمركزه ، يستطيع بعد الملك مباشرة ، أن يصرّف الأمور . ويدخل ضمن اختصاصه سجن من يرتضي سجنه ، وإنزالُ العذاب الأليم بمن يرتضي إنزال ذلك به . إنّ المرأة لا تكتفي بتوجيه الاتّهام فتأخذ القضية مجراها كيْ يُدلَى فيها برأي . إنما تصدر الحكم الذي تهوي في عبارتها القوية الدلالة . إنها تتخطى كلّ الخطوات التي تتدرج فيها كل قضية تسير سيراً طبيعياً ، فتبدأ بالنهاية ، وكأنها كسبت القضية فعلا . والذي جعلها تعتقد هذا الاعتقاد الفاسد ، وتوجه الاتهام الكاذب ، وتصدر الحكم الجائر ، الكِبْرُ الزائف والغرور الآثم اللذان تمكنا منها والانسياق وراء الهوى الذي لا يغني من الحق شيئاً .

والعجيب في الأمر أنها هي التي سبقت بالكلام والشكوى وليس يوسف الذي رفض التهمة بشدة ، وفي أوجز عبارة وأبلغها ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ .

وقد أحقّ الله الحقّ وأزهق الباطل على يد الشاهد الذي ثبتت له براءة يوسف وجاء على لسانه قوله تعالى ﴿ إنه من كيدكنّ ، إن كيدكنّ عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

وقد أمكن لهذه القضية أن توقف عند هذا الحدّ لأن امرأة العزيز هي المتهمة وليس لأن يوسف هو البريء .

والحقيقة أن مثل هذا التصرّف قد لا يستغرب حينما نعرف أن المجتمع الذي وجد يوسف نفسه فيه ليس دينياً بالمعنى الصحيح . فليست هناك قواعد

سماويّة يمكن أن يلجأ إليها أو يقاس عليها في مثل هذه الحال .

ونحن نتبين أثر ذلك في العزيز ، زوج المرأة ، فلا نجد له أيَّ ردّ فعل إيجابيّ . وكأنا به في هذه اللحظة الحرجة ، آثر الاختفاء فالتفكّر في هذا الابتلاء الذي حلّ به .

وكأن لبراءة يوسف التي ثبتت ، ومنزلة زوجه العالية في قلبه ، دوراً في هذا الموقف الذي اتخذه . بل إنه اعتقاد منه في عدم إقبال زوجه مستقبلا على عمل قريب من هذا بسبب الفضيحة ولما صحّ له من طهر يوسف الكامل ، لا يخطر بباله ، لأمر يريده الله عز وجلّ ، مجرد الإبعاد بينهما !

ووصل ما قامت به امرأة العزيز إلى عِلْم جماعة من النسوة في المدينة ، وكان لهن رأي واضح باستنكار ما فعلته . قال تعالى : ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين﴾ .

إن هذه الآية تشير إلى فئة معينة من نسوة تلك المدينة ، وليس المراد بطبيعة الحال كل النساء ، فإن لفظ « نسوة » جمع قِلة ، وقد ذهب البعض إلى أنهن خمس « امرأة خبّازه ، وامرأة ساقيه ، وامرأة بوّابه ، وامرأة سجّانه ، وامرأة صاحب دوابّه »(١) ولكنا لا نقول بهذا ، ونعتقد أنهنّ من جنس الطبقة الراقية التي تنتمي إليها امرأة العزيز للأسباب التالية :

(١) لأن النسوة اللاتي أشير إليهنّ لا يجهلن يوسف ، ولا يكون بالتالي خروجه عليهنّ مستقبلا . بأمر امرأة العزيز ، مفاجئاً لهن بالدرجة العالية التي كانت المفاجأة فيها فعلا .

(٢) لأن هذه الطبقة ليست مما تأبه لها امرأة العزيز في قليل أو كثير . إنما تهتم لمن كنّ في مثل طبقتها ، وتعمل لهن خصيصاً تلك الوليمة المعتبرة .

---

١ ـ البحر المحيط ٥/٣٠١ .

(٣) الذين بدا لهم سجن يوسف حتى من بعد ما رأوا الآيات على عفته وطهره ، إنما نفذوا ذلك تحت تأثير نسوتهنّ ، فليست امرأة العزيز التي نعتقد أنها زيّنت للعزيز هذه الفكرة ، بدليل القول على لسانها ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين﴾ . سوى رمز لجماعة من النسوة في طبقتها كان لهنّ في رجالهنّ مثل هذا التأثير .

هذه الفئة المعيّنة من النسوة تمثل نوعاً منهنّ يحرصن على تتبع أخبار النسوة بالذات ، أمثالهنّ . ويجدن لذّة في نقل الخبر من جهة إلى جهة حتى تتسع دائرته .

وما الخبر الذي وجدن لذّةً في ترديده ونقله ؟ خبر امرأة العزيز مع فتاها . وماذا قُلن ؟ .

قد قلن ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها في ضلال مبين﴾ .

ويلاحظ أن لفظ العزيز يأتي لأول مرة على الإطلاق هنا . وقد جاء على لسان جماعة النّسوة ، بل حرصن عليه ، لأن ذوي الأخطار محطُّ الأنظار عادةً ودائماً لا تُعدم فئات تجد لذّة في تسقُّط أخبارهم ونقلها .

ويفهم من كلام النسوة استفظاعهنّ للعمل الذي أقدمت عليه من ناحية ، ولأنها راودت فتاها ، مملوك سيدها ، من ناحية أخرى . وإن حديثهن هنا مبنيٌّ على براءة يوسف التي استنتجها الشاهد من قميصه : فليس هناك تعرّض البتة ، من النسوة ليوسف .

أما كيف وصلت لهنّ هذه الأخبار والحكم ببراءة الفتى ، فلعل ذلك إنما تمّ لأن السّيّد إنما وُجد لدى الباب الذي يشكل الحدود بين المكان الخاص بالزوجة ، والمكان المشاع .

وهناك تمّ الاتّهام ودفعه ، وانتهت المسألة التي فاحت رائحتها إلى الشاهد الحكيم الذي أبان رأيه . وهذه الجزئية على لسان النسوة ﴿قد شغفها حبا﴾

تبيّن علمهن الدقيق بحقيقة موقف المرأة من فتاها . وسبب مراودتها له عن نفسه . وهو أن حبه قد خالط شغاف قلبها وانتهى منها إلى أعمق الأعماق .

ويُشمّ من قول النسوة الاستنكار لموقفها الغريب في نظرهن ، من هذا الفتى .

وقد عبرن جميعاً عن رأيهنّ في هذه القضية صراحة بقولهن كما جاء في الآية: ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾.

فنحن بصدد إن التي تفيد التوكيد ولام التوكيد الداخلة على الفعل « نرى » ولفظة الضلال البعيدة المغزى والصفة « مبين » الدالة على الضلال الواضح البيّن .

وإن هذه الجزئية ﴿ إنّا لنراها في ضلال مبين ﴾ تفيد معرفة النسوة يقيناً بأن امرأة العزيز مازالت في ضلالها المبين . فنحن نتبين فرقاً بين هذا التعقيب وتعقيب الشاهد المتزن مخاطباً في كثير من اللطف المرأة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إنّك كنت من الخاطئين ﴾.

وهل غاب هذا القول عن امرأة العزيز ؟ وماذا كان موقفها ؟ قال تعالى: ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كلّ واحدة منهنّ سكيناً وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونن من الصاغرين ﴾ .

لقد فسرت امرأة العزيز قول النسوة عنها مكراً بها لأنه في الخفاء في غيبتها ، ولم يكن بطبيعة الحال في صالحها . وإذا كنّ قد وصلت إليهن المعلومات الدقيقة عنها ، لسعيهنّ وراء أمثال هذه المعلومات وحرصهنّ عليها وترويجهنّ لها ، فقد كانت امرأة العزيز ، التي لا تجهل دورها الإيجابي في هذه القضية ، أكثر سعياً وراء معرفة ردّ الفعل عند الأخريات ، إن

صح أن تسربت إليهن عنها أنباء . وقد وصل إلى علمها يقيناً أنهنّ قد مكرن بها فعلاً .

وتأمل الفعل الذي استخدمته الآية ﴿ فلما سمعت ﴾ إنّ ما وصل إليها من قولهنّ عنها ، كان من الموافقة لحقيقة ما تعرف من موقفها ، حتى لكأنها قد سمعت بأذنيها ما قلنه عنها حرفاً حرفاً . وإذا كانت هذه المرأة لم تتورّع عن اتهام الفتى البريء فهل ينتظر منها أن ترفّع عن تأويل قول النسوة عنها بأنه مكرٌ بها ؟

إنّهنّ قد مكرن بي ، فعليّ أن أبادلهنّ مكراً بمكر . بل أن أثبت لهنّ أنّ مكرهنّ لا يقاس شيئاً بمكري . فإذا كان مكرهنّ قد وقف عند حدّ القول فسيتخطاه مكري إلى الفعل . فماذا عملت ؟ قال تعالى:﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهنّ وأعتدت لهن متكئاً وآتت كلّ واحدة منهنّ سكيناً وقالت اخرج عليهن ﴾ .

لقد عرفت هذه المرأة التي نوت المكر كلّ واحدة من اللائي قلن عنها ما قلن . فرسمت خطة دقيقةً لتبرير موقفها من يوسف أمامهنّ ، وهن اللائي لمنها لوماً عنيفاً لا هوادة فيه . إنّ امرأة العزيز التي شغف فؤادها حبُّ يوسف ، للصّورة التي خلقه الله تعالى فيها ، تعرف ردّ الفعل عند النسوة ، لو خرج عليهن يوسف ، خاصةً إذا كان في زينته .

فقرّرت دعوتهن جميعاً في بيتها ، وانتقت طعاماً معيناً لا يؤكل حتى يُحمل في يد ويحزّ بالسّكّين ، باليد الأخرى حَزّاً . وفي اللحظة التي كان فيها وضع النسوة هكذا ، أمرت يوسف بأن يخرج عليهن .

ونستطيع أن نستنتج أنّها تعمدت جعله في كامل زينته . وإنّا لنتساءل : لماذا جاء في الآية الكريمة جملة « أُخرج » وليس « أُدخُل » مثلا في قوله تعالى:﴿ وقالت أخرج عليهن ﴾ ؟

والجواب على ذلك ، والله أعلم ، هو أن امرأة العزيز ما زالت تذكر

تماماً فرار يوسف منها دائماً ، وكان نجاح خطتها متوقفاً على خروج يوسف على النسوة فهو أهمّ ما في الأمر . فما أسهل دعوة النسوة وتلبيتهن للدّعوة! وهنّ اللاتي يعتبرن ذلك شرفاً كبيراً لهنّ ، وتهيئة الطعام والسّكاكين . وهنا نعتقد ، والله أعلم ، أنّ امرأة العزيز . كي تضمن تنفيذ يوسف لما تريده منه ، جعلت النسوة في مكان قريب من الباب الخارجيّ ، وجعلت يوسف في مكان آخر في عمق المنزل ، يُعتبر انتقال يوسف منه إلى مكان النسوة خروجاً وليس دخولاً ولهذا جاء في الآية ﴿وقالت اخرج عليهنّ﴾ والله أعلم .

وخرج يوسف عليه السلام على النسوة تنفيذاً لأمر امرأة العزيز ، « وخروجه يدل على طواعيتها فيما لا يعصي الله فيه »(١) قال تعالى ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلاّ ملكٌ كريم﴾ . وكان خروج يوسف على النسوة في اللحظة التي اعتقدت المرأة أنّها مناسبة ، وقد أَلِفَتْ أيديهنّ تَحْرِيكَ السكاكين لتقطيع الطعام .

وقد فوجئن بخروجه عليهن وقد قيل : « كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء ، وفي حديث الإسراء أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم لما أخبر بلقيا يوسف قيل يا رسول الله كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر »(٢) .

وانشغالاً من النسوة به ، وإكباراً منهن له ، استمرت عملية التقطيع ، وتجاوزت السكاكين الطعام إلى أيدي النسوة ، وعملت عملها في الأيدي . ولنتأمل جملة « قطّعن » التي جاء فيها الفعل في صيغة فعّل الدالّة على تكثير الفعل . إن السكين حينما تلامس لأول وهلة يد أي إنسان وتسيل الدم ، فإنه يُحسّ في أعماقه بألم لا يطاق ، وهؤلاء النسوة ، لذهولهن بخروج

---

١ ـ البحر المحيط ٥/٣٠٢ .

٢ ـ البحر المحيط ٥/٣٠٢ .

يوسف المفاجيء عليهن استمرت بانتظام عملية تقطيع أيديهنّ بالإجماع ، دون أن تشعر واحدة منهن لفرط الدهشة بشيء من ألم . وهنا يقول جماعة النسوة بالإجماع أيضاً . كما جاء في الآية ﴿وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ ومعنى ﴿حاش لله ما هذا بشراً﴾ تعالى يوسف عن أن يكون بسبب جماله الفائق واحداً من البشر إن العادة لم تجر بأن يكون بين البشر من له جمال وطهر وحُسن أحدوثة كالذي صَحّ ليوسف ، إن هذه الصفات مجتمعة لا تَصِحّ لِبَشَر . وهنا جاء على لسانهن جميعاً ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ لقد جعلنه ملكاً لما استقر في جميع النفوس من كون الملائكة القمة في الجمال والطهر . بل إنهن نعتن هذا الملك بأنه كريم . وليس وراء هذه الصفة وراء ، في تبيين إكبار النسوة ليوسف الذي وافق مَظهَرُه ما صح من مخبره .

وهكذا كسبت امرأة العزيز الجولة ، وأثبتت للنسوة أن مكرها أبلغ من مكرهن ، وحينما استقرّ في نفسها أن لومهنّ لها قد ذاب في غمرة إكبارهن ليوسف إذا بها تلتفت إليهن مؤنبة لهن على قولهن عنها من قبل ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنّا لنراها في ضلال مبين﴾ وتقول لهنّ الآن وهنّ في غمرة الاندهاش ، كما جاء في الآية ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ .

لقد أدرك جماعة النسوة حينما خرج عليهن يوسف عليه السلام الغرض الذي من أجله دعتهن امرأة العزيز ، وهو تبرير موقفها . وعرفن ضمناً أنه بلغها لومهن لها . والآن . وقد كسبت الجولة ، تفاجئهن بالإشارة لأول مرة إلى الفتى الغائب الحاضر ، الذي لمنها فيه من قبل ، والذي كان تلك اللحظة أمامهنّ . فـ « ذا » اسم إشارة ، والمراد يوسف الحاضر آنذاك ، واللام للبعد . والمراد الفتى الذي لمنها فيه وها هو ذا واقف أمامهن . ونون التوكيد الثقيلة التي يمكن الاستغناء عنها في « ذلكن » ، لولا حرص المرأة

عليها لشد انتباه النسوة إلى أنها تخصّهنّ بالقول الذي كان مفاجئاً لهن بذاته ، فكيف به وهو في هذه الصّورة القويّة من التّعبير .

وحينما نتبين أن « ذلك » يشار بها إلى المفرد البعيد بُعداً بيناً ، وأن ذلك المفرد هو الفتى في قول النسوة ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ وأن ذلك الفتى هو يوسف الواقف أمامهن آنذاك ، ندرك المغزى البعيد الذي ترمي إليه امرأة العزيز في توجيه الخطاب للنسوة اللاتي لمنها . ونتبين رغبتها الأكيدة في الانتقام ممن لامها عُمقاً ، ونتمثل نقلتها المفاجئة العنيفة لهن من الحاضر المذهل إلى ماضي قولهن الذي أردْن له أن يكون سِرّاً وأن يبقى كذلك دائماً . وواضح أن اسم الموصول « الذي » من قولها: « فذلكن الذي لمتنني فيه » يعود على يوسف القريب منهن . قد أدخلت نون التوكيد الثقيلة في هذه الجملة « لمتنني فيه » .

لقد كان لوم النسوة للمرأة عنيفاً في نظرها ، ولكنّ ردّها عليهن أكثرُ عنفاً ، إذ جمع بين الفعل والقول .

والعجيب في أمر هذه المرأة أنها استطاعت أن تضبط لسانها ، حتى نجحت خطتها ، التي كانت واثقة من نجاحها الثقة كلها . وحينما واتتها فرصة الكلام كان تأنيبها لاذعاً ، وتبكيتها مرّاً ، يلفهما التلذُّذ بفرحة النصر والتّشفي من العواذل .

وبما أن لومهن قد زال ، لأن السبب الموجب له قد زال ، فقد اتّضح يوسف عليه السلام لهن على حقيقته ، وتحول علمهنّ إلى عُذر ، فإنها انتقلت إلى الاعتراف أمامهن صراحة ، وفي صورة قوية جداً من التعبير ، بأنها هي التي راودته عن نفسه وأنّه استعصم ، فقد جاء في الآية على لسانها ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ إن امرأة العزيز التي سبق أن اتّهمت الفتى أمام زوجها بأنه هو الذي أراد بها سوءاً ، تعترف الآن أمام جماعة النسوة ، دون أن يطلب منها ذلك ، بل دون أن يكون منهن الآن ، أدنى

إشارة إلى قصتها مع الفتى ، بل دون أن يكون هناك حديث من قُرب أو بُعد عن ذلك الموضوع أو آخر قريب منه . ولعل بعض النسوة كن قد نسين حقّاً لومهن السابق لها . ولكن حبّ امرأة العزيز الدائم للفتى ، جعل قولهن عنها حياً في نفسها ، وتمثلته مكراً منهنّ بها ، فبادلتهن مكراً بمكر . وحينما اطمأنت إلى زوال سبب لومهنّ لها اعترفت بكل بساطة بالحقيقة أمامهنّ . فما معنى هذا ؟ هل معناه أن المرأة في خصوصيّاتها للمرأة آلف ؟ ربّما .

ولا يخفى أننا بصدد أوّل اعتراف صريح من امرأة العزيز ببراءة يوسف وطهره .

وإن الضمير في « راودته » يعود إلى يوسف الذي كان آنذاك يسمع ويرى . وهي لم تعترف بمراودتها يوسف عن نفسه فقط ، بل وباعتصامه منها ومبالغته في الاعتصام ، قال الزمخشري(١) وقد وافق قوله ما في نفسي « الاعتصام : بناء مبالغة يدلُّ على الامتناع البليغ والتحفّظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها » .

وهنا تنتقل إلى تهديد الفتى إن أَصَرّ على الاستعصام والرفض . قال تعالى على لسانها ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصّاغرين﴾ .

ونعتقد أن الذي شجع المرأة على تكرار الطلب من يوسف وتهديده بالسجن والصّغار إن لم يغير من موقفه ، أنه رأى بعينيه مدى نجاح مكرها بالنسوة فليس المراد بالمكر النسوة فقط ، بل ويوسف أيضاً . وإن عبارتها لغاية في القوة ، فنحن بصدد لام القسم ، ونونين للتوكيد .

ويلاحظ أنها لا تكتفي بالاعتراف أمامهن بالمراودة من ناحية والاستعصام من ناحية أخرى . بل تجدد طلبها صراحة أمامهن أيضاً ، لا ، إنها تتخطى التلميح والتصريح إلى الأمر الصريح « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وإذا كانت في اتّهامها يوسف أمام زوجها قد عينت نوعين

---

١ ـ الكشاف ٢/١٢٥ .

من الجزاء ﴿أن يُسجن أو عذاب أليم﴾ لأن العذاب المترتب على السجن إنما كان من الجائز أن يصح على يوسف ، لأنها كانت آنذاك تعتقد أن التهمة لاصقة بيوسف لا محالة ، فإنها الآن ، وقد ثبتت براءته ، أمام زوجها والشاهد من قبل ، وأمام جماعة النسوة أيضاً . تعين نوعين من العقاب مصدرهما الكبرياء المجروح . والعزة الآثمة . إن الصَّغار والذل مترتبان على السجن . وقد كانت هذه المرأة بحكم سيطرتها على العزيز زوجها . قادرة على ذلك .

وكان جواب يوسف الذي يخشى الله تعالى في السّراء والضرّاء منطقياً ، فقد آثر السجن على ما أُمر باقترافه من معصيته ، ويستعين بربّه . معلناً عن عجزه ، بأن يصرف عنه كيدهنّ ، ويستجيب له الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ، فيصرف عنه كيدهنّ ، ويكاد يعيش في أمن وسلام .

ولكنّ المجتمع غير صحيح العقيدة ، يأبى رجاله ، الذين يوجّههم في العديد من الأمور نساؤهم ، إلا أن يزجّوا بيوسف في السجن حتى تهدأ الشائعات عن النّسوة . ومتى كان ذلك ؟ من بعد أن رأوا الآيات الكثيرة على عفاف يوسف وطهره ! قال تعالى ﴿ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين﴾ .

ودخل مع يوسف السجن فتيان ، عبّر لكلّ منهما رؤياه وطلب من الساقي الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند سيّده الملك ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يُنسيَ الشّيطانُ الساقيَ ذكر يوسف للملك ، فلبث في السجن بضع سنين ، وكاد يبقى فيه إلى أنْ يَتوفّى لولا أن رحمة الله تعالى شاءت أن يرى الملك رؤيا يعجز الكلُّ عن تأويلها ، وهنا يتذكر الساقي يوسف ، ليس صاحبه في السجن ، ولكن المعبّر للرُّؤى . ولا يبخل يوسف على الساقي بتعبير رؤيا الملك ، وبالنّصيحة . ويمنحهم ما علمه الله إياه عن العام الخامسَ عشر ، ويفرح الملك لتعبير الرُّؤيا المقنع ، ويتعجب من وجود مثل هذا الفتى في السجن ، ويدرك أن في الأمر لُغزاً .

ويطلب يوسف إليه ، ويرفض يوسف الطلب ، ويشترط قبل خروجه سؤال النسوة اللائي قطعن أيديهن . قال تعالى ﴿ وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ ، إن ربي بكيدهن عليم ﴾ . ويتصدّى الملك العادل لدراسة القضية بنفسه ويتضح له كلُّ شيء . قال تعالى ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾

وإنا لنتساءل : لماذا وجّه الملك خطابه لكلّ النسوة؟ « ما خطبكن إذ راودتّن يوسف عن نفسه » .

وليس لامرأة العزيز مثلا ؟ .

ولا ننسى أن إشارات يوسف تحوّلت إلى مراودة جمع النسوة أيضاً ، وفيهنّ امرأة العزيز بطبيعة الحال قال تعالى ﴿ قال ربّ السّجن أحبُّ إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنّ ، إنه هو السميع العليم ﴾ .

ولا يخفى أنه جاء في الآية الأخيرة ﴿ كيدهنّ ﴾ .

وجاء على لسان يوسف أيضاً قوله تعالى ﴿ إنّ ربي بكيدهنّ عليم ﴾ فلماذا هذا التحوّل إلى ضمير جماعة النسوة ؟

والجواب على ذلك ، والله أعلم ، أن مراودة يوسف عن نفسه كانت وقتاً من الأوقات من امرأة العزيز ، وحينما مكرت بهنّ ، وقطعن أيديهنّ وقد خرج يوسف عليهنّ ، على الرغم من أن المرأة كسبت الجولة . وانتزعت عذرهن لها ، إلا أنها ، وهذا لم يخطر على بالها مطلقاً ، خسرت مشاركتهن لها في الإعجاب بيوسف ، والافتتان به ، والتصدي له . بل ومراودتهنّ له عن نفسه أسْوَةً بامرأة العزيز .

ونحن نعتقد والله أعلم ، أن النسوة لم يكتفين بالقول ليوسف أطع مولاتك ، بل لعلهن لم يقلن له ذلك أصلا . ولعل الأقرب أن تكون كل واحدة منهن حريصة على الاستئثار به دون سواها ، ولو كانت امرأة العزيز .

ومما قد يدلُّ كذلك على أن هذا هو الموقف الجماعيّ للنسوة ، وأن المسألة لم تعد تخصُّ العزيز وامرأته . هذه الآية ، قال تعالى:﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

إنها لا تستعمل ضمير المفرد الغائب كي يقال إنه يعود على العزيز ، وإنما تستعمل ضمير جماعة الغائبين ، الذي يعود على جماعة ، ومن بينهم العزيز .

كان ذلك هو رد الفعل عندهم ، تحت تأثير النسوة في رجالهن وغلبتهن عليهم .

فليست امرأة العزيز التي قالت عن يوسف:﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ سوى رمز لجماعة نسوة ، من طراز معيّن ، وجدن في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة . والرّاجح أن السجن تمّ بأمر العزيز .

وقد يقول قائل : لعلّ الملك من باب الأدب عمّم الاتّهام للنسوة فجاء على لسانه ﴿ ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه ﴾ . ونحن نربأ بهذا الملك العادل الذي اتضحت له القضية تمام الوضوح ، ودور كلّ شخصية فيها ، أن يتّهم جماعة النسوة بما جنته امرأة العزيز فقط .

وإنّ أدب هذا الملك العادل وخلقه العظيم يتّضح من تسويته في المراودة امرأة العزيز بالنسوة . والمعروف أنها تخطت المراودة المجرّدة إلى العمل الإيجابيّ فالأمر الصريح والتهديد البيّن .

وإنّ الملك . استفظاعاً منه بفعلهن جميعاً مع يوسف يقول لهنّ : ﴿ما خطبكنّ﴾ والخطْب : الشأن والأمر الذي فيه خطر(١) .

ولا يدفع النسوة التهمة عنهنّ ، ولايتحدّثن عن أنفسهن حديثاً مباشراً ، ولكن يتنزّهن يوسف عليه السلام عن أيّ سوء ويفهم من هذا التنزيه أنهن أكرهْنَ إكراهاً على أن يكنّ نزيهات . فلم يكن ذلك بمحض إرادتهنّ . قال تعالى على لسانهنّ:﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ . ويقال هنا ما قيل عن حاش لله من قبل على ألسنتهن في قوله تعالى:« وقلن حاش لله ما هذا بشراً » .

وإنّ جماعة النّسوة وقد قُدّر لهنّ أن يخرج يوسف أوّل الأمر عليهنّ ، ويعرفن حقيقته حقّ المعرفة ؛ لينقلن هذه المعرفة في القول الذي جاء على لسانهنّ ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ إنهن لا يقلن مثلا:« ما سمعنا عليه من سوء » فدلّ قولهنّ على علمهنّ اليقينيّ بطهر يوسف عليه السلام . ثم قد كان بإمكانهن أن يقلن:« ما علمنا عليه سوءاً » ولكنهن يحرصن على « مِنْ » التي تفيد التّبعيض . فدلّ ذلك على أنهن حريصاتٌ على نفي أي ذرّة سوء عن يوسف عليه السلام .

وهنا تنطق امرأة العزيز بالحقّ . وتتوّج بشهادتها على نفسها براءة يوسف عليه السلام . قال تعالى:﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ .

وهذا الذي جاء على لسانها ينقسم إلى ثلاثة أقسام:« الآن حصحص الحقّ » و « أنا راودته عن نفسه » و « إنه لمن الصادقين » . ويعتبر القسمان الأخيران تبييناً للأول . وهي تبدأ حديثها بقولها:« الآن » فكأنها تفصل بهذا الابتداء بين فترتين ، تتميز ثانيتهما بما ليس في الأولى . وهذا الذي تتميز به الثانية هو الحقّ الذي تبيّن بعد طول خفاء . وما هو الحق ؟ إنه

---

١ ـ البحر المحيط ٣١٢/٥ .

الذي أشار إليه القسمان الأخيران . وأوّل هذين « أنا راودته عن نفسه » يتعلّق بامرأة العزيز نفسها . فنحن بصدد اعتراف صريح بأنها هي التي راودت يوسف عن نفسه .

ونحن بصدد اعتراف . إذا نُظِر إليه من زاوية اعتُبِرَ تطوّراً . وإذا نظر إليه من أُخرى اعتبرَ جديداً . إنه يعتبر تطوراً إذا نظرنا إليه من زاوية أن هذه المرأة سبق أن اعترفت بذلك صراحة أمام جماعة النسوة اللآتي مكرن بها . فقد جاء على لسانها في قوله تعالى: ﴿ولقد راودته عن نفسه﴾.

ووجه التطور فيه أنه هناك في أضيق نطاق ، بينما هو هنا في أوسعه . وإنه يعتبر جديداً ، لأن اعترافها السابق أمام النسوة ، لم يكن القصدُ منه الإحسان إلى يوسف بتبرئة ساحته ، ولكن لغايةٍ في نفسها .

إذن اتّخذت الاعتراف مطيّةً للانتقال من المراودة إلى الأمر الصريح ثمّ إنّ هذا الاعتراف لم ينتفع منه يوسف آنذاك شيئاً ، فقد كان في الفترة التي ما زال يهيمن فيها على امرأة العزيز الباطل . بعكس هذا الاعتراف الثاني أمام الملك الذي له دورٌ في تبيين الحقّ الذي حلّ محل الباطل .

وثاني القسمين الأخيرين ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ له الدور الباقي في تبيين ذلك الحق . فإذا كان القسم السابق يتعلق فقط بموقف المرأة المتعرضة ليوسف فإنّ هذا القسم الأخير ، يتعلق من ناحية ، بموقف يوسف عليه السلام الذي صرف الله تعالى عنه كيدهن ، ومن ناحية أخرى بصدقه في كل ما قال . وإن القسمين الأخيرين لقويّا الدلالة . فقد ابتدأ الأول بالضمير « أنا » وليس وراءه قوة في بلاغة الدلالة . أما القسم الثاني فقد اشتمل على إن التي تفيد التوكيد واللام التي تفيد التوكيد أيضاً من قولها « لمنَ الصادقين » .

ونحن نتبين نوعاً من التشابه بين ما جاء على لسانها هنا ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ . وما سبق أن جاء على لسان الشاهد قبل أن تثبت له براءة يوسف في قوله تعالى: ﴿وإن كان قميصه قُدَّ من دُبر فكذبت وهو من

الصادقين﴾ وكأن كلام الشاهد الحكيم ما زال يدوي في أذنيها وقد استيقظ ضميرها . وحينما تثبت براءة يوسف ، باعتراف المرأة الصريح ، تثبت ضمناً نزاهة الشاهد الحكيم .

ولا يخفى أن جواب النسوة المنفصل عن جواب امرأة العزيز كان رداً على استفهام واحد من جانب الملك في قوله تعالى على لسانه﴿قال ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه﴾. وإنّ هذا الاستفهام الواحد فهمه جماعة النسوة فهماً معيّناً ، وفهمته امرأة العزيز فهماً معيّناً . وهما فهمان ، موافقان للموقف الفعليّ لهنّ من يوسف عليه السلام . وقد كانا جوابين موافقين للموقف من يوسف ممّا يجعلنا نقول : إن شخصيات نسوة المدينة تطورت تطوّراً جماعياً ، متّجهاً حيث الخيرُ والنهاية السعيدة . وإنّ شخصية امرأة العزيز أيضاً تطورت تطوراً فردياً سريعاً متجهاً حيث الخير والنهاية السعيدة كذلك .

وحينما نتبين أنّ موقف النسوة ، وفيهن امرأة العزيز متطرّف من يوسف عليه السلام ، وأنّ امرأة العزيز أكثر تطرّفاً ، فمعنى ذلك أنّهنّ حينما يعدن إلى جادة الصّواب ويقلن الحق ، فإن وقع ذلك على النفوس حُلو ، ولكنّ وقع قول امرأة العزيز أكثر حلاوةً في النفوس . فإذا كانت براءة يوسف عليه السلام تثبت بشهادة النسوة له ، فإن هذه البراءة تتوّج بشهادة امرأة العزيز على نفسها ، وبشهادتها له . ونستطيع أن نفهم المجهود النفسيّ الذي بذله جماعة النسوة وامرأة العزيز في سبيل العودة إلى الحقّ ، ونستطيع أن نستنتج أنّ المجهود الذي بذله النسوة كبير ، ولكنّ المجهود الذي بذلته امرأة العزيز أكبر .

وفي ضوء كلّ ذلك نستطيع أن نقول بشأن النسوة ، إن هناك استيقاظ ضمير جماعيّ ، ولكنه بشأن امرأة العزيز أكثر استيقاظاً .

ففي مثل هذا الظرف عودة المجموعة إلى الصّواب أسهل إذ لا يُعدّم

على أقلّ تقدير واحدةٌ تكون تلك رغبتها فتبدي بها ويتبعها الأخريات . أما امرأة العزيز ، ذاتُ الموقف الأكثر إيجابية من يوسف ، فقد كانت في هذا الظرف وحيدةً ، وفي حاجة لشجاعة أكبر . وعموماً هي في اللحظة الحاسمة لم تفقد هذا ولا ذاك .وقد كان اعتراف النسوة أمامها ، السابق لاعترافها ، بمثابة الشرارة الأولى التي فجّرت الضمير يقظة ، والنفس شجاعة .

وباعتراف النسوة ، وباعتراف امرأة العزيز ، انتهت كلُّ أدوار جماعة النسوة وامرأة العزيز في هذه القصّة ، ولا شكّ أنها نهاية طيّبة سعيدة لكلّ . إذ يترتب على ذلك راحة ضمير كلّ واحدة مدّة بقائها في الحياة . فإنّا لنرجح أنهنّ جميعاً معذبات الضمير مدة بقاء يوسف في السجن .

والآن نتساءل : وأين عزيز مصر الذي سبق أن اشترى يوسف وطلب من زوجه أن تكرم مثواه عسى أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً ؟ أما زال على قيد الحياة أم أنه فارقها ؟ أما زال عزيز مصر أم أنّ منصب عزيز مصر شاغر ؟

للإجابة عن ذلك نودّ أولا أن نتأمل قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام مخاطباً الملك : ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم﴾ وقد أصبح يوسف عزيز مصر . فكأن يوسف عليه السلام يرشح نفسه لهذا المنصب . وهذا يعني بكلّ تأكيد أنّ العزيز ، زوج المرأة ، لم يكن وقتها عزيز مصر ، فمن غير المعقول أن يرشّح نبيُّ الله يوسف نفسه لهذا المنصب لو لم يكن شاغراً . أليس العزيز هو الذي أحسن إلى يوسف الإحسان كله ؟ وقديماً قابله يوسف عليه السلام بالإحسان . ألم يأت على لسان يوسف قوله تعالى : ﴿معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون﴾ ألم يكن أميناً على عرض العزيز ؟ وكيف يكون منصب عزيز مصر شاغراً ؟ إما أن يكون الرّجل ، وهو المتقدّم في السن حقاً ، قد طُلب إليه من قبل أن يتنحى

من هذا المنصب لسواه ، وإما أن يكون هو نفسه قد طلب ذلك من قبل أيضاً ، وقد لُبي طلبه . وإما أن يكون الرجل قد تُوُفِّيَ فعلا وغاب من مسرح الحياة أساساً . ومن يدري ؟ ربما كان من الأسباب التي دعته إلى فكرة تبني الغلام يوسف أول الأمر تقدُّمه في السن ، فكان عنده أملٌ جدٌّ ضئيل في الحصول على الذرّية من صلبه ، هذا إن صحَّ أنه لم يكن عقيماً أساساً .

وقد يقول قائل : ولكن زوجه كانت على أقل تقدير ، نَصَفاً ، فكيف نوفق بين هذه الحقيقة وتقدّمه في السن ؟ والجواب على ذلك أننا لا نعدم في عصر من العصور زوجين هذه حقيقة سنّهما . خاصة إذا كان الزوج ثرياً . فإذا أضفنا إلى عمر العزيز المدّة التي مكثها الغلام يوسف في بيته حتى صار رجلا ، حتى الفترة التي بدا لهم فيها من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ، والفترة التي قضاها يوسف في السجن ، انتهينا إلى أنه من الطبيعي جداً ألاّ يكون العزيز في منصبه .

أما الذي يبين إلى حد كبير هل كان عزيز مصر حياً أو ميتاً ؟ فالصيغة التي تنطق بها هذه الجملة « ليعلم » من قوله تعالى على لسان يوسف:﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾. فإن قرئت في صيغة المبني للمعلوم فمعنى هذا أن العزيز ما زال على قيد الحياة ، ولا يهمنا في قليل أو كثير ، إن كان ما زال يحتفظ بالمرأة زوجاً أو لا ، وإن قرئت في صيغة المبني للمجهول فمن الجائز أن يكون الرّجل على قيد الحياة ، ومن الجائز أن يكون فارقها ، فإنه في هذه الحال ، واحدٌ من الذين يمكن أن يعلموا .

الشـــاهد :

قال تعالى:﴿ وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين ،

فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ .

لقد شاء الله تعالى أن كان الشاهد من أهل امرأة العزيز ، فقد كان بالإمكان ألا يكون منهم . ولم يكن بالإمكان أن يكون من أهل يوسف . وحينما ينتهي الشاهد من أهلها إلى براءة يوسف ، فذلك القمة في الدلالة على نزاهة الحكم .

والحقيقة أن الشاهد بالضرورة ، كان يجب أن يكون من الذين لهم حقّ دخول بيت العزيز ، لأن هذه القضية من خصوصيات العزيز ، ولا يسمح لأحد في العادة أن يطلع على مثل هذه الخصوصية ، إلا إذا كان شخصاً بمنزلة الحَكَم من أهل الزوجة .

ونعتقد أن الشاهد حينما تدخل كانت الأزمة في أوجها ، وقبل أن يتسرب أيُّ خبر يوهم بأن له دوراً ما في توجيه الشاهد وجهة معينة ، لهذا كان حكمه فَيْصَلا في القضية . وقد منح الله تعالى هذا الشاهد من أهلها عقلاً راجحاً وفكراً ناضجاً .

ومع ذلك فقد كان هواه مع امرأة العزيز ، وكان يتمنى في أعماقه أن تثبت براءتها ويدان الفتى . أليس هو الذي جاء على لسانه أوّلا كما في الآية ؟ ﴿إن كان قميصه قُدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ لقد فكر الشاهد بأن القميص الذي قُدّ ، لا يمكن إلا أن يُقدّ ، بناءً على ما بلغه من الاستباق حيث الباب والصراع بينهما ، إلاّ من قبل أو دبر . وكان يتمنى لو أنه قُدّ من قُبُل ، وفي ذلك دليلٌ على براءة الزوجة ، فإن ذلك يعني أنها قاومت الفتى ودفعته عنها أو أنه أسرع خلفها فتعثر في قدّام القميص فشقه . وحينما يثبت صدق المرأة يثبت كذب الفتى .

ولكنّ الفكر والحقّ شيء والهوى والرّغبة شيء آخر . وكان العدل يقتضي منه أن يعقد المقابلة المنطقية ، فإن كانت براءتها تثبت لو قدّ قميصه

من قبل ، فإن براءته تثبت لو قُدَّ قميصه من دبر وقد فَرَض العدل وإعطاء الفرصة العادلة للمتحاكمين ، أن يقول الشاهد كما جاء في الآية ﴿ وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ ويأبى الله إلا أن يُحقّ الحق ويزهق الباطل ، قال تعالى عن الشاهد ﴿ فلما رأى قميصه قدَّ من دبر قال إنّه من كيدكن ، إنّ كيدكن عظيم ﴾ .

لقد وضع الشاهد الحكيم قاعدتين تثبت بإحداهما براءة امرأة العزيز . وبثانيتهما براءة الفتى يوسف . وقد أعلنهما أمام الحاضرين . والآن هو يطبق كلا من القاعدتين على واقع القميص ، وتتضح القاعدة التي تثبت براءة الفتى ، ولا يتردّد الشاهد العادل في إعلان الحكم على رؤوس الأشهاد ﴿ إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم ﴾ .

ويلاحظ أن الشاهد يظلّ لطيفاً في تعبيره ، فلا يتضمن الحكم ضمير المؤنثة المخاطبة . فلم يقل مثلا إنّه كيد منك أو ما شابه ذلك . ولكنه أدب منه يُدخل امرأة العزيز ضمن جماعة النسوة ، ويجعلها واحدة من جنسهن في قوله ﴿ إنّه من كيدكنّ ﴾ وقد وصف كيد النسوة عموماً بأنّه عظيم كما جاء في الآية ﴿ إنّ كيدكنّ عظيم ﴾ وهي شهادةٌ من الحقّ جلّ وعلا بأنّ هذه هي صفة كيد النسوة ، وهو كيد عظيم في هذه المناسبة ، لأنّا لو افترضنا أن الشاهد في حالة مماثلة لهذه ، لم يكن بهذه الدّرجة من الحكمة ، أو لم تكن عنده الحيثيات التي تجعله يُصدر حكماً عادلاً ، أو لو كان الشاهد غير عادل ، أو غير قوي الشخصية ، فما هي النتيجة المرتقبة لاتّهام خطير جائر من امرأة تستمد قدرتها على الظلم من كيدها ومنزلتها المرموقة المستمدة من منزلة زوجها ؟ النتيجة أن البريء يتزيّا بغير زيّه وقد تزيّا به المتهم الحقيقي .

وإذا كان يوسف عليه السلام قد زُجّ به في السجن ظلماً وعدواناً وقد ثبتت براءته التامّة ، فكيف يكون موقف القوم منه ؟ لو لم يكن الشاهد بهذه

الحكمة والنزاهة ؟ والحيثيات بهذا الوضوح في الدلالة ؟ وقد شاءت إرادة الله تعالى ، الذي كان دائماً مع عبده المحسن يوسف عليه السلام ، أن يكون الشاهد تلك صفاته ، فاستفاد من كلّ الملابسات التي كانت في صالح يوسف عليه السلام .

وإذا كان الشاهد مؤدّباً مع المرأة في تعبيره عن نتيجة الحكم ببراءة يوسف ، حينما قال كما جاء في الآية: ﴿إنّه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم﴾ ونظن أن لمكانتها الاجتماعية دوراً في تلطيف الخطاب إليها ، فإن للمكانة نفسها أيضاً دوراً في قوله التالي كما جاء في الآية: ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين﴾. فنحن لا نتبين شيئاً من التناسب بين ما هدّد به يوسف من السجن والعذاب الأليم على لسان امرأة العزيز ، وبين ما يطلب منه الآن أن يفعل وقد ثبتت براءته . إنه يطلب منه فقط ، أن يُعرض عن هذا الأمر ، وألا يذكره مرّة ثانية . ويكتفي الشاهد بأن يطلب من امرأة العزيز أن تستغفر لذنبها لأنها كانت من الخاطئين . ويلاحظ أن الشاهد يجعل المرأة الخاطئة من الخاطئين ، وليس من الخاطئات مثلاً ، وكأن منزلتها العالية ما زال لها دورها وأثرها في مخاطبة الشاهد لها . فالمعروف أنّ الخاطئين ، بصيغة جمع المذكر السالم ، تضمّ في مثل هذه الحال عادة الذكور والإناث ، وكأن الشاهد ، أدباً منه ، يجعل المرأة واحدة من الخاطئات والخاطئين ، وهم كثير . وفي الحقيقة هي تستحقّ غير ذلك وكأن خُلق يوسف الرفيع وحُسن أدبه ، أثّرا في الشاهد فكان في كلامه شيء كبير من اللطف والأدب .

ولا ننسى أيضاً أن الشاهد في هذه القضية ، له سلطة أدبيّة وليست رسمية . فلم يكن مثلاً قاضياً أو حاكماً كي ينتظر منه أن يصدر حُكماً في تلك القضية التي أوقفت عند ذلك الحدّ لأن المرأة هي المتّهمة ، وليس لأن يوسف هو البريء . والحقيقة أن مثل هذا التصرف قد لا يستغرب في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة .

الفتيان ، صاحبا يوسف في السجن :

قال تعالى: ﴿ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين﴾ وأوّل ما نودّ الوقوف عنده هو دخول الفتيين السجن فهل كانا يستحقان الدّخول فعلاً أم أنهما ، أو أحدهما ، ناله شيء من الظّلم الذي نال يوسف عليه السلام ؟ والحقيقة أنّ البتّ في مثل هذا الأمر مستحيل ، فمن الجائز أن يكونا مظلومين ، وكان نصيب الذي قتل منهما من الظلم كبيراً ومن الجائز أن يكون كلّ منهما قد نال جزاءه الذي يستحقّ فنجا البريء وصلب المذنب .

وأوّل ما يلاحظ على هذين الفتيين السنّ ، فهما مماثلان للفتى يوسف ، ألم يجيء على لسان نسوة المدينة ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ وهذه المماثلة من رحمة الله تعالى بيوسف . فالمعروف بصفة عامة . أن المرء آلف لمن هو في سنه وأكثر إقبالا عليه .

وإنّ رحمة الله تعالى اقتضت أن يدخل السجن هذان الفتيان بالذات . مع يوسف رِجْلاً بِرِجْل . وفي ذلك نوع من التّسلية له .

ونستطيع أن نفهم في مثل هذه المواقف ، رغبة الأطراف الطبيعية في كسب حبّ الآخرين ، بالإقبال عليهم والاندماج فيهم وحسن التعامل معهم.

وكان يوسف عليه السلام بطبعه خير من يألف ويؤلف . وقد ضرب المثل الأعلى في السّجن ، دماثة خلق ، وحسن معاملة ، ولين جانب ، وقمة طهر .

وتشاء إرادة الله تعالى أن تجعل كلا من الفتيين المشركين يرى رؤيا صادقة ، في وقت واحد ، وتشاء إرادة الله أن تكون هناك عَلاقة وثيقة بين الرُّؤيا والعمل الأصليّ لكل . فساقي الملك يرى نفسه يعصر عنباً ، وقد سمي بالخمر لما يؤول إليه .

وخبازه يرى نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه . ويطلب كل من الفتيين من يوسف عليه السلام ، المماثل لهما سناً ، أن يؤولهما لهما . وقد نعتاه بالقول :﴿ إنّا نراك من المحسنين ﴾ .

وكان يوسف عند حسن ظن الفتيين ، فعبر لكل رؤياه ، قال تعالى: ﴿ يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأمّا الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾.

ويتحقق تعبير يوسف لرؤيا كل من الفتيين بحذافيره ، ويغيب من مسرح الحوادث الذي صُلِبَ منهما بطبيعة الحال ، وهو الشخصية الوحيدة سيئة الحظّ في قصة يوسف لأن نهايته غير سعيدة .

وفي الوقت نفسه تثبت براءة الساقي ويخرج من السجن بعد أن أوصاه يوسف عليه السلام أن يذكره عند سيّده الملك .

ولا ننسى أن العلاقة بين يوسف الفتى والساقي الفتى علاقة مودّة ، ليس بسبب الموافقة في السن فقط ، بل لأن الساقي اعتبر تعبير يوسف لرؤياه بشارةً له .

وقد كان المأمول ألاّ ينسى الساقي يوسف بصفة عامة ، الذي طوّق جيده بهذا التعبير ، فكيف به وقد طلب يوسف منه ذلك ؟ وكيف به وهو ساقي الملك يراه باستمرار .

وتشاء إرادة الله تعالى ألاّ يتذكر الساقي يوسف إلاّ وقد عجز أهل الحلّ والعقد عن تعبير رؤيا الملك ، وهنا فقط ، وبعد بضع سنين ، بسبب هذا العجز المجمع عليه يتذكّر الساقي يوسف ، ليس صاحبه في السجن ، إنّما المعبّر للرؤى ! قال تعالى:﴿ وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أُمة أنا أُنبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيُّها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمانٍ يأكلهنّ سبع عجاف وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخرَ يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ .

ويلاحظ على كلام الساقي تمام الاطمئنان والثقة .

فعلى الرغم من أنه ليس في الواقع هو الذي سيعبر الرُّؤيا ، إلا أنه يبدأ حديثه مستخدماً ضمير المفرد المتكلم . « أنا » وقد أردف ذلك بقوله: « أُنبئكم بتأويله » وكأنه هو الذي يقوم بهذه العملية لولا قوله:« فأرسلون » الذي أشعرنا بأن الذي سيقوم بهذه العملية شخص آخر بعيد عن مكان الملك بعداً مّا .

وحينما يقول الساقي: « أنا أُنبئكم بتأويله » فذلك يذكّرنا بقوله هو ورفيقه في السجن ليوسف « نبّئنا بتأويله » .

وحينما نتبين أنّ خاصّة الملك ، وذوي الرأي والمشورة ، أجمعوا على العجز عن تعبير الرُّؤيا . بل واعتبارها أضغاث أحلام . ويأتي في هذه اللحظة الحرجة ساقٍ يعبّر في لهجة الواثق عن قدرته على تعبير هذه الرُّؤيا التي عجز عنها الخاصة ، وهو الذي لم يشمله أساساً طلب تعبير الرؤيا . فذلك دليل على ثقته البعيدة في كلّ ما سيقوله يوسف السّجين آنذاك .

وهي ثقة مستمدة مما سبق أن أخبره هو وصاحبه . عما سيحدث لكلّ مستقبلاً . وقد تحقق كلّه بحذافيره .

ونستطيع أن نفهم أنّ الساقي شعر آنذاك بغمرة الفرح تملأ جوانب نفسه . حيث إنّه سيحلُّ ما أشكل على أهل الحل والعقد . وهو رجل ذكيّ فَهِمَ أنّ الرؤيا ليس لها عَلاقة مباشرة بذات الملك . وليست رؤيا يمكن أن تكون نهايتها غير سعيدة كرؤيا الخباز مثلا .

لهذا كان شعوره بالسعادة كبيراً ، وبالإشفاق ألاّ يجد يوسف في السجن كبيراً أيضاً .

ولا نشك أنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه سيقدّم للملك يداً بيضاء . تؤكد وفاءه السابق الذي خرج بسببه من السجن سابقاً .

لهذا استعمل في تعبيره ما يدل على إحساسه بالقدرة على عمل ما لم يستطع عمله الآخرون .

وقد قيد ذلك على الإطلاق بقوله: « فأرسلون » .

والآية التالية التي تشعرنا بأن الساقي قد ذهب إلى يوسف فعلاً وقابله تبتديء بذكر اسم يوسف صراحة.وإن ذكر اسم يوسف صراحة في هذه المناسبة يشعرنا بالمنزلة الرّفيعة التي يتمتع بها يوسف عليه السلام عند الساقي . وهو رمز لسواه . فهذه هي المنزلة التي يتمتع بها في نظر الجميع . وإن ذكر اسمه صراحة في مخاطبة الساقي له يذكرنا بالطريقة نفسها التي خاطب بها الشاهد يوسف عليه السلام . وقد شهد قميصه ببراءته . حيث قال كما جاء في الآية﴿ يوسف أعرض عن هذا﴾ والملك في مخاطبة النسوة مستقبلاً يصرّح باسم يوسف . إكباراً منه ليوسف الذي لم يكن حاضراً آنذاك .

وفي طريقة مخاطبة الساقي ليوسف شيء كبير من الإكبار والإجلال . أليس هو القائل:﴿ أيُّها الصديق ﴾ ؟ ألم يقل الملك الوقور للملأ من قبل ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ ؟ ألم يقل الإخوة فيما بعد كما جاء في الآية:﴿ قالوا يا أيها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً ﴾ ؟ ألم يأت على لسانهم في الرّحلة الثالثة ﴿ يا أيُّها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ ﴾ ؟

ثم إن الساقي ينعت يوسف عليه السلام بالصِّدّيق . وهو بناء مبالغة(١) ألم يبيّن له صدقُ كل ما أخبر به ؟ لهذا هو لا يقتنع بنعت يوسف بالصّادق . ولكن بصيغة المبالغة هذه . وكيف لا يكون وضع الساقي هكذا وقد تحقّق كلُّ ما قاله يوسف له ولرفيقه الخباز ونحن نعتقد أن السّاقي إنما استدل على قدرة يوسف الخارقة على تعبير الرُّؤى مما حدث لزميله بأكثر مما حدث له . وتفسير ذلك هو أنّه ما أسهل فرار المسؤولين في أمثال هذه المناسبات إلى التأويل السعيد ! فإن صحّ ذلك نالوا خيراً . وإن كان العكس أمنوا من أدنى

---

١ ـ البحر المحيط ٥/٣١٥ .

إساءة تلحقهم .وإن الأمر يختلف بالنسبة للنوع الآخر للرؤى ، من جنس ما رأى الخباز وحينما يتحقق له كل ما قاله يوسف ، فإن ذلك يجعل الساقي يوقن بأن ما قاله يوسف عن علم وليس مجرّد مصادفة . وإنا لنستطيع أن نفهم أن الساقي كان حريصاً على اختبار قول يوسف لزميله . وتفسير طبيعة هذا الاختبار نستطيع أن نفهمها من قول يوسف عليه السلام﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ إنه عليه السلام لا يكتفي بالإشارة إلى الصّلب . وهذا أمر جلل في حد ذاته . ولكن بإضافة حقيقة أخرى هي أن الطير ستأكل من رأس الخباز . وكيف يكون ذلك ؟ بعد أن يترك الجسدُ معلقاً لمدّة طويلة . فكأن الساقي كان الرّقيب دائماً ، المقارن بين ما قاله يوسف عليه السّلام وما حدث للخباز بعد ذلك .

وإذا كان الملك من قبل قد طلب الفتيا في رؤياه من الملأ ، حينما قال كما جاء في الآية﴿ يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى ﴾ فإن الساقي في خطابه ليوسف يطلب الفتيا أيضاً ، مستعيراً الفعل الذي استعمله الملك ، دليلاً على الاهتمام البالغ . فإن الملك هو الذي سيستفيد في الواقع من إفتاء يوسف ، وليس السّاقي .

وهذا هو الطلب الثاني من السّاقي أن يعبّر الرؤيا ، ولكن طريقة العرْض في المرّتين مختلفة . ففي المرة الأولى قصّ كلّ من الفتيين رؤياه ، ثم طلب التعبير ، وأردفا ذلك بتبيين السّبب الذي من أجله خصا يوسف بالطلب قال تعالى﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين﴾ . أما في المرة الثانية فقد قدّم الذي نجا منهما بين يدي الرؤيا نعت يوسف بأنّه صديق ؛ لصدق كلّ ما قال عن رؤياهما سابقاً ؛ ولأنه واثق أن فُتيا يوسف في رؤيا الملك سيكون لها النصيب نفسه من الصّدق .

ثم إن الساقي حينما يصف يوسف بالصديق في خطابه له ، فإن في ذلك تعبيراً عن امتنانه الذي جاء متأخراً ، ليوسف الذي سبق أن بشره بنجاته ،